رجال العدالة الأربعة

إدجار والاس

رجال العدالة الأربعة

تأليف
إدجار والاس

ترجمة
محمد حامد درويش

مراجعة
شيماء طه الريدي

هنـــداوي

رجال العدالة الأربعة

إدجار والاس

The Four Just Men

Edgar Wallace

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٣ ٢٢٤٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٠٥
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١

جميع الحقوق الخاصة بترجمة وتصميم هذا الكتاب وصورة الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف-غير تجاري-منع الاشتقاق، الإصدار ٤,٠. جميع الحقوق الخاصة بالعمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

Copyright © 2021 Hindawi Foundation.
All rights related to translation, design, and cover artwork of this work are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License. All rights related to the original work are in the public domain.
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/
The Four Just Men/Edgar Wallace; this work is in the public domain.

المحتويات

تمهيد: صنعة تيري	٧
١- قصة في صحيفة	١٣
٢- الرفاق المخلصون	٢١
٣- مكافأة الألف جنيه	٢٩
٤- التحضيرات	٣٩
٥- اعتداء على صحيفة «ميجافون»	٤٩
٦- الأدلة	٦٣
٧- مبعوث الأربعة	٧٣
٨- مفكرة الجيب	٨٥
٩- جشع ماركس	٩٧
١٠- الثلاثة الذين ماتوا	١١١
١١- قصاصة صحيفة	١٢٣
١٢- الخاتمة	١٣١

تمهيد: صنعة تيري

إذا تركتَ ميدان بلازا ديل مينا، وسِرتَ في الشارع الضيق، الذي يرفرف فيه بتكاسل علَم قنصلية الولايات المتحدة الكبير من الساعة العاشرة صباحًا إلى الرابعة بعد الظهر، ومضيتَ عبر الميدان الذي يُطِل عليه فندق دي لا فرانس، وانعطفتَ من عند كنيسة العذراء، وسِرتَ عَبْر الشارع النظيف الضيق المُسمَّى هاي ستريت أوف كاديز، فستصل إلى مقهى كافيه أوف نيشنز.

في الساعة الخامسة لن تجد في المقهى إلا عددًا قليلًا من الناس في البهو العريض ذي الأعمدة، وعادةً ما ستجد الطاولاتِ الصغيرةَ المستديرة — التي يزدحم بها المشى الممتد أمام أبواب المقهى — خاليةً من الرواد.

في أواخر الصيف (في عام المجاعة) جلس أربعة رجالٍ حول إحدى الطاولات يتحدثون في أمور العمل.

كان أولهم هو ليون جونزاليس، والثاني هو بويكارت، والثالث البارز وسطهم هو جورج مانفريد، أما رابعهم فهو تيري، أو سايمونت. ومن بين هؤلاء الأربعة، كان تيري هو الوحيد الذي لا يحتاج إلى تقديمٍ لدارسي التاريخ المعاصر؛ ففي إدارة الشئون العامة في سكوتلاند يارد ستجد ملفه، ستجده مسجلًا باسم تيري، وشهرته سايمونت.

يمكنك، إن كنت محبًّا للاستطلاع، ولديك التصريح اللازم، أن تَطَّلِع على صُوَره الفوتوغرافية المأخوذة في ثمانية عشر وضعًا مختلفًا؛ صورة فيها يداه مشبوكتان أمام صدره العريض، وصورة بلحيته النامية منذ ثلاثة أيام، وصورة جانبية، وصورة ... ولكن ما الداعي إلى أن نستعرض الثماني عشرة صورةً جميعها؟

ستجد أيضًا صورًا لأُذنَيه — وهما قبيحتان جدًّا تشبهان أُذنَي الوطواط — وقصة حياته بالتفصيل وبالكامل.

منح السنيور باولو مانتاجيزا، مدير المتحف الوطني للأنثروبولوجيا في فلورنسا، تيري شرف إدراجه في عمله الرائع (انظر فصل «القيمة الفكرية للوجه»)؛ ولذلك أقول لكل دارسي علم الإجرام وعلم الفراسة إن تيري لا يحتاج إلى تقديم.

جلس هذا الأخير إلى الطاولة الصغيرة، والتململ بادٍ عليه، يقرص وجنتَيه السمينتَين، ويُمسِّد حاجبَيه الكثَّين، ويلمس بأصابعه النَدْبة البيضاء في ذقنه غير الحليق، ويفعل كل الحركات التي يفعلها المنتمون للطبقات الدنيا حينما يجدون أنفسهم فجأةً على قدم المساواة مع من يفوقونهم منزلةً.

فمع أن جونزاليس، بعينَيه الزرقاوَين الفاتحتَين ويدَيه العصبيتَين، وبويكارت، الثقيل الظل الكئيب المُتشكِّك، وجورج مانفريد، بلحيته الرمادية المدبَّبة ونظَّارته الأحادية العين، كانوا أقل شُهرةً منه في عالم الجريمة، لكن كل واحدٍ منهم كان رجلًا عظيمًا، كما سنعرف لاحقًا.

وضَع مانفريد جريدة «هيرالدو دي مدريد» على الطاولة، وخلَع نظَّارته الأحادية، ومسحَها بمنديلٍ نظيف، وضحِك في سره.

قال مُعقبًا: «هؤلاء الروس مضحكون.»

قطَّب بويكارت جبينَه وأمسَكَ بالجريدة. قال: «مَن تقصد؟ مَن هذه المرة؟»

«حاكم إحدى المقاطعات الجنوبية.»

«هل قُتِل؟»

بَرَمَ مانفريد شاربه في سُخريةٍ هازئة.

«عجبًا! بالطبع لا! مَن ذا الذي يقتُل رجلًا بقنبلة؟! نعم، نعم، أعرف أنها نُفِّذَت من قبل، لكنه عملٌ أخرقُ جدًّا، وبدائي للغاية، ويُشبِه كثيرًا وَضْعَ لغمٍ تحت سور مدينةٍ حتى ينهار ويُقتل عدوك من جملةِ آخرين.»

كان بويكارت يقرأ الخبر في الجريدة بتأنٍّ ودون تعجُّل، كعادته.

قرأ من الجريدة: «أُصيب الأمير بجروحٍ بليغة وفقَد من شَرع في قتله إحدى ذراعَيه.» ولوى شفتَيه في استنكار. أخذ جونزاليس يبسُط ويقبِض يدَيه اللتَين لا تسكنان أبدًا بعصبية، وكانت تلك أمارةَ اضطرابِ أعصاب ليون.

أشار مانفريد برأسه في اتجاه جونزاليس وضحك قائلًا: «صاحبنا هذا. صاحبنا ضميره يُؤنِّبه ويبدو أنه ...»

قاطعَه ليون بسرعة: «مرةً واحدة فقط، ولا أرغب في أن تتذكَّرها، يا مانفريد.» وأضاف موجهًا كلامه إلى بويكارت، وليس تيري: «وأنت تذكر، يا بويكارت، أنني نصحتُكُم

ألا نفعلها. أتَذْكُر؟» بدا شغوفًا بأن يُبرِّئ نفسه من التهمة المسكوت عنها. تابع بأنفاسٍ لاهثة: «كانت مسألةً بائسة بسيطة، وكنتُ أنا في مدريد، وجاءني بعض الرجال من أحد المصانع في برشلونة. أخبروني بما كانوا ينتوون فِعلَه، وفزعتُ من جهلهم بمبادئ قوانين الكيمياء. دَوَّنْتُ المُكوِّنات والنِّسَب، ورجوتُهم، أجل، كدتُ أن أجثُوَ على ركبَتَيَّ، أن يستعينوا بطريقةٍ أخرى.» قلتُ: «يا أبنائي، إنكم تلعبون بشيء يخشى الكيميائيون أنفسهم أن يتعاملوا معه. إن كان مالك المصنع رجلًا سيئًا، فتخلصوا منه مهما كلف الأمر، أطلقوا عليه النار، تربصوا به بعد أن يتناول عَشاءه ويثقل جسده ويخمل، وقدِّموا له التماسًا باليد اليمنى، وباليد اليسرى» وثنَى براجمَه ثم فردَها للأمام ولأعلى وكأنه يطلق النار من سلاحٍ وهمي على طاغيةٍ خيالي، وتابع: «لكنهم ما كانوا ليستمعوا إلى أي شيءٍ مما تعيَّن عليَّ قوله.»

حَرَّك مانفريد الكوب الذي يحتوي على سائلٍ قشدي والذي كان أمامه، وأومأ برأسه وفي عينَيه الرماديتَين بريقٌ ينم عن بهجة واستمتاع.

«أتذكَّر. أن أناسًا عديدين لقُوا حتفَهم، والشاهد الرئيسي في محاكمة خبير المتفجرات كان الرجل الذي قُصد بالقنبلة.»

تنحنح تيري وكأنه كان يَهمُّ بالحديث، ونظر الثلاثة إليه بفضول. كان ثَمَّةَ بعض الاستياء في صوت تيري.

«أنا لا أدَّعي أنني رجلٌ عظيم مثلكم يا سادة؛ فنصف الوقت لا أفهم ما تتحدَّثون عنه؛ فأنتم تتحدثون عن الحكومات والملوك والدساتير والقضايا. أما أنا فإن ألحَقَ بي رجلٌ أذًى فسأُهَشِّم رأسه.» وتردَّد لحظةً، ثم أكمل: «لا أعرف كيف أقول ما أعنيه. لكنني أعني. حسنًا، أنتم تقتلون الناس دون أن تحملوا لهم كراهيةً، رجالًا لم يتسبَّبوا لكم في أذًى؛ تلك ليست طريقتي.» تردَّد مجددًا، وحاول أن يستجمع أفكاره، ونظر بإمعانٍ إلى الشارع، وهَزَّ رأسه، والتزم الصمت.

نظر الآخرون إليه، ثم تبادلوا النظرات فيما بينهم، وابتسموا. أخرج مانفريد عُلبةً ضخمة من جيبه، وأخذ منها سيجارةً غير منتظمة، وأعاد لفَّها ببراعة وأشعل عود ثقابٍ حكوميًّا في نعل حذائه الطويل الرقبة.

قال: «إن طريقتك يا عزيزي تيري» ثم نفَث دُخَان سيجارته وتابع: «هي طريقةٌ حمقاء. إنك تقتل من أجل منفعةٍ شخصية، ونحن نقتل من أجل العدالة، وهو ما يرتقي بنا فوق مستوى طغمة القتلَة المحترفين. عندما نرى رجلًا ظالمًا يمارس الاستبداد على

بني جلدته؛ عندما نرى شرًّا يُرتَكَب في حق الرب» ورسم تيري الصليب على صدره، وتابع: «وفي حق البشر، ونعرف أنه بقوانين البشر قد ينجو هذا الآثم من العقاب؛ نُنْزِل به عقابنا.»

قاطعَه بويكارت القليل الكلام قائلًا: «اسمع، ذات مرة كانت تُوجد فتاة، شابةٌ وجميلة، هناك في تلك الأنحاء.» ولَوَّح بيده جهة الشمال بغريزة لا تخطئ «وارتكب قسٌّ معها. قس، أنت تفهم! وتغاضى الأبوان عن الأمر لأنه يحدث كثيرًا، لكنَّ الفتاة كانت ممتلئة بالبغض والخزي، وأبت أن تُكرِّر الأمر معه مرةً ثانية، فاستدرجها وحبسها في منزله، ثم عندما خبَت نضارتها طردها، والتقيتُ بها. لم تكن تَعْنيني في شيء، ولكنني قلتُ لنفسي: «ها هو ظلم لا يمكن للقانون أن يُقَوِّمه كما ينبغي.» وهكذا في إحدى الليالي زرتُ القس وأنا أُخفي عينيَّ بقُبَّعَتي وقلتُ إنني أريده أن يأتي معي ليمنح البركة لمسافر يُحتَضَر. في البداية رفض أن يأتي معي، لكنني أخبرته أن الرجل المُحتَضَر غني وشخصٌ ذو شأن؛ عندئذٍ ركب الحصان الذي كنتُ قد أحضرتُه معي، وصحبتُه إلى منزلٍ صغير على الجبل. أوصدتُ الباب واستدار. وهكذا! كان قد وقع في الفخ، وعرف ذلك؛ عندئذٍ قال بصوت لاهث: «ماذا ستفعل؟» قلتُ له: «سأقتلك، يا سيدي.» وصدَّقني. قصصتُ عليه قصة الفتاة. صرخ عندما اتجهتُ نحوه، لكن ربما كان من الأفضل له أن يُوفِّر على نفسه الكلام. توسَّل قائلًا: «دعني أرى قسًّا لأعترف له.» فأعطيتُ له مرآةً.»

توقَّف بويكارت ليرتشف رشفةً من قهوته.

وقال ببساطة: «وجدوه على الطريق في اليوم التالي دون أيِّ علامةٍ تدُل على الطريقة التي مات بها.»

مال تيري إلى الأمام وقال بتلهُّف: «كيف؟» ولكن بويكارت ابتسم بتجهُّم، ولم يُجِب.

قطب تيري حاجبَيه وأخذ ينظر بتشكُّك من واحد إلى الآخر.

«الحكومة، ويُوجد رجال لم تسمع بهم الحكومة من قبلُ. تتذكَّر رجلًا يُدعى جارسيا، مانويل جارسيا، زعيم الحركة الكارلية؛ إنه في إنجلترا؛ فهي البلد الوحيد الذي هو فيه في مأمن؛ من إنجلترا يُدير الحركة هنا، الحركة العظيمة. أتعرف عما أتحدث؟»

أومأ تيري برأسه إيجابًا.

«في هذا العام، كما في العام السابق، تُوجد مجاعة، والرجال يموتون حول أبواب الكنائس، ويتضوَّرون جوعًا في الميادين العامة؛ لقد شاهدوا حكومةً فاسدة تعقب حكومةً فاسدة؛ لقد رأَوا الملايين تتدفَّق من الخزانة العامة إلى جيوب السياسيين. هذا العام سيحدث أمرٌ ما؛ لا بد للنظام القديم أن يرحل. الحكومة تعرف هذا؛ إنهم يعرفون أين يكمن الخطر،

ويعرفون أن خلاصهم يعتمد على أن يصير جارسيا في قبضتهم قبل أن يكتمل تنظيم الثورة، ولكن جارسيا في مأمنٍ في الوقت الحالي وسيكون في مأمنٍ طوال الوقت لولا أحد أعضاء الحكومة الإنجليزية، الذي يُوشِك أن يمرر مشروعَ قانون. عندما يصدر ذلك القانون، سيُصبح جارسيا في عِداد الموتى. يجب أن تساعدنا في منع إصدار هذا القانون؛ لهذا السبب أرسلنا في طلبك.»

بدَت الحيرة على وجه تيري، وغمغم: «ولكن كيف؟»

أخرج مانفريد ورقةً من جيبه وأعطاها تيري، وقال بتُؤَدة: «هذه، حسبما أظن، نسخةٌ طبق الأصل من نشرة الشرطة بأوصافك.» أومأ تيري برأسه إيجابًا. مال مانفريد إلى الأمام وسأله، وهو يشير بإصبعه إلى كلمة في وسط الورقة: «هل هذه صنعتُك؟»

بدا تيري متحيرًا. وأجاب: «أجل.»

سأله مانفريد بلهفة: «هل تعرف حقًّا أي شيء عن تلك الصنعة؟» ومال الرجلان الآخران إلى الأمام ليسمعا الجواب.

قال تيري ببطء: «أعرف كل شيءٍ تلزم معرفتُه عنها، ولولا خطأٌ ارتكبتُه، لربما جنيتُ أموالًا كثيرة.»

أطلَق مانفريد تنهيدةَ ارتياحٍ وأومأ برأسه لرفيقَيه.

قال بسرعة: «إذن فالوزير الإنجليزي في عِداد الموتى.»

الفصل الأول

قصة في صحيفة

في الرابع عشر من شهر أغسطس، من عامٍ لن نُحدِّده من أعوام القرن العشرين، ظهرت فِقرةٌ صغيرة في ذيل صفحةٍ غير مهمة في أكثر صحف لندن رصانة، مفادُها أن وزير الخارجية شعَر باستياءٍ شديد لِتلقِّيه عددًا من رسائل التهديد، وهو على استعدادٍ لأن يدفع خمسين جنيهًا مكافأةً لأي شخص يُقدِّم معلومات من شأنها أن تُؤدِّي إلى القبض على الشخص، أو الأشخاص، الذين يرسلون له تلك الرسائل، وإدانتهم، إلى آخر ما ورد في تلك الفقرة. ظنَّ الأناس القليلون الذين يقرءُون الصحيفة اللندنية الأكثر رصانة، بطريقتهم حين يستغرقون في التفكير في نادي أثينيوم، أنه من العجيب أن يستاء وزير الخارجية من أي شيء، والأعجب منه أن يُعلِن في الصحف عن استيائه، والأعجب على الإطلاق أنَّ بوُسعِه أن يتصور للحظةٍ واحدة أن عرض مكافأة يمكن أن يضع حدًّا للاستياء.

باهتمامٍ حلَّ عليهم للتو، قرأ مُحرِّرو الأخبار، في الصحف الأقل رصانة ولكن الأكثر توزيعًا، هذا الخبر وهم يتصفَّحون بضجَرٍ أعمدةَ «الصحيفة الرصينة العجوز» المُمِلَّة.

تساءل سمايلز، الصحفي بصحيفة «الكوميت»: «عجبًا! ما هذا؟» وقَصَّ الفِقرة بمقصٍّ كبير، ولصقَها في لوحةٍ من ورق النسخ وكتَب عليها:

من الذي يرسل خطابات التهديد للسير فيليب؟

لمَّا كانت صحيفة «الكوميت» من صحف المعارضة، أعاد التفكير وألحق فقرةً استهلالية، يقترح فيها مازحًا أن تكون هذه الرسائل من ناخبٍ ذكي سئم من أساليب المماطلة التي تنتهجها الحكومة.

قرأ محرر الأخبار بصحيفة «إيفنينج ورلد»، وهو سيدٌ أبيض الشعر يتحرك بتأنٍّ، الفقرة مرتَين، وقصَّها بعناية، وقرأها مجددًا، وبعد أن وضعَها تحت ثقالة ورق، سرعان ما نسي أمرها تمامًا.

أما محرر الأخبار بصحيفة «ميجافون»، وهي حقًّا صحيفة متألقة جدًّا، فقطَع الفقرة بينما كان يقرؤها، ودقَّ جرسًا، واستدعى صحفيًّا، في نَفَسٍ واحد، إن جاز التعبير، وأصدر بضع تعليماتٍ مقتضبة.

«اذهب إلى بورتلاند بليس، وحاوِل أن تقابل السير فيليب رامون، واحصل على قصة تلك الفقرة؛ سبب تلقيه للتهديدات، وكُنْه تلك التهديدات؛ احصل على نسخة من إحدى الرسائل إن استطعت. إن لم تتمكن من مقابلة رامون، فتوصَّل إلى أحد أفراد السكرتارية الخاصة به.»

ومضى الصحفي المطيع في طريقه.

عاد بعد ساعة في تلك الحال من الانفعال الغامض التي تُلائم على وجه الخصوص صحفيًّا حصل على «سَبقٍ صحفي». ذكر محرر الأخبار ذلك لرئيس التحرير، وقال ذلك الرجل العظيم: «ذلك جيد جدًّا، ذلك جيد جدًّا حقًّا.» وهو ما كان يُعتَبَر مديحًا على أعلى مستوًى.

ما كان «جيدًا جدًّا حقًّا» بشأن قصة الصحفي يمكن استخلاصه من نصف العمود الذي ظهر في صحيفة «ميجافون» في اليوم التالي:

«أحد وزراء الحكومة في خطر.»
«تهديدات بقتل وزير الخارجية.»
«رجال العدالة الأربعة.»
«مخطط لإعاقة تمرير مشروع قانون تسليم الأجانب.»
«مكاشفات غير عادية.»

أثار ظهور الفقرة التالية في أعمدة الأخبار لصحيفة «ناشيونال جورنال» الصادرة أمس قدرًا كبيرًا من التعليقات:

خلال الأسابيع القليلة الماضية تلقَّى وزير الدولة للشئون الخارجية (السير فيليب رامون) رسائلَ تهديد، آتيةً كلها على ما يبدو من مصدرٍ واحد وكتبها شخصٌ واحد؛ هذه الرسائل ذات طابعٍ لا يمكن معه أن يتجاهلها وزير صاحب

الجلالة للشئون الخارجية، الذي بموجب ذلك يعرض مكافأة قدرها خمسين جنيهًا (٥٠ جنيهًا إسترلينيًّا) لأي شخص، أو أشخاص، بخلاف الكاتب الفعلي للرسائل، يُقدِّم معلوماتٍ من شأنها أن تقود إلى القبض على كاتب هذه الرسائل المجهولة المصدر وإدانته.

كان هذا التصريح غريبًا للغاية، مع تذكُّر أنه من المعتاد العثور يوميًّا على الرسائل المجهولة المصدر والتهديدية في حقائب الخطابات التي تأتي لكل رجل دولة ودبلوماسي، لدرجة أن صحيفة «ديلي ميجافون» فتحَت على الفور تحقيقاتٍ بشأن سبب هذا التحوُّل غير المعهود.

زار ممثل لهذه الصحيفة مقر إقامة السير فيليب رامون، الذي وافق بكرمٍ بالغ على أن يستقبله.

قال وزير الخارجية العظيم الشأن، ردًّا على سؤال ممثلنا: «إن اتباع هذا التصرُّف هو خطوةٌ غير معتادة للغاية، لكنني اتبعته بتوافقٍ تام مع زملائي في الحكومة. لدينا أسبابٌ تدعونا إلى الاعتقاد بأن ثَمَّةَ أمرًا ما وراء التهديدات، ويمكنني القول إن المسألة بين يد الشرطة منذ بضعة أسابيعَ خَلَت.»

«ها هي إحدى الرسائل.» وأخرج السير فيليب من حافظة أوراقٍ ورقةً من مفكرةٍ أجنبية وتفضَّل بالسماح لممثلنا أن يصنع منها نسخة.

كانت غير مؤرَّخة، وبغضِّ النظر عن أن الخط كان من الصنف الأنثوي المزخرف الذي يميز الأعراق اللاتينية، كانت الرسالة مكتوبة بلغةٍ إنجليزية جيدة.

كان نصها كالتالي:

معالي الوزير

إن مُسوَّدة مشروع القانون، التي أنت على وشك أن تُصدرها في هيئة قانون، غير عادلة. إنها موضوعة بدقة من أجل تسليم رجال، يجدون حاليًّا في إنجلترا ملاذًا من اضطهاد الطغاة والمستبدين، إلى حكوماتٍ فاسدة وانتقامية. إننا نعرف أن الرأي في إنجلترا منقسم حول الأسس الموضوعية لمُسوَّدة مشروع القانون المقدَّمة منك، وأن إصدارها في هيئة قانون الجرائم السياسية للأجانب يعتمد على نفوذك، ونفوذك وحده.

لذلك من دواعي أسفنا أن نُحذِّرك أنه إن لم تسحب حكومتك هذه المُسوَّدة، فسيكون من الضروري أن نستأصلك، وليس أنت وحدك، وإنما أي شخصٍ يأخذ على عاتقه تحويل هذا التدبير الجائر إلى قانون.

توقيع
رجال العدالة الأربعة

تابع السير فيليب قائلًا: «مُسوَّدة مشروع القانون المشار إليها هي بالطبع مُسوَّدة مشروع قانون تسليم الأجانب (الجرائم السياسية)، التي، لولا أساليب المعارضة، ربما كانت قد أُصدِرَت في هدوءٍ في هيئة قانونٍ في الدورة التشريعية الأخيرة.»

أضاف السير فيليب موضحًا أن ما دعا إلى تقديم مُسوَّدة مشروع القانون هو انعدام الاستقرار في مسألة ترتيب الخلافة على العرش في إسبانيا.

«من الضروري ألا تُئوي إنجلترا ولا أي دولةٍ أخرى مُروِّجي الدعايات الباطلة الذين يمكن أن يُشعلوا فتيل الفوضى في أوروبا، وهم في مأمن في هذه الدول أو غيرها. وبالتزامن مع تمرير هذا التدبير اتُّخِذَت تدابيرُ لتمرير قوانين وقراراتٍ مماثلة في كل دولة في أوروبا. في الواقع، كلها موجودة، وكانت قد أُعِدَّت العُدة لإصدارها في هيئة قوانين بالتزامُن مع مشروع قانوننا، في الجلسة التشريعية الأخيرة.»

سأل ممثل صحيفة «ديلي ميجافون»: «لماذا تُعطون أهمية لهذه الرسائل؟»

«لأننا متأكدون، عن طريق شرطتنا وشرطة القارة الأوروبية، أن كُتَّاب هذه الرسائل رجالٌ جادُّون للغاية في تهديداتهم. إن «رجال العدالة الأربعة»، كما يُسمُّون أنفسهم، معروفون كمجموعة في كل بلاد العالم تقريبًا، ونَودُّ جميعًا للغاية أن نعرف هوية كل واحدٍ منهم. وسواء كانوا على حق أو على باطل، فإنهم يعتبرون أن العدالة على النحو المنصوص عليه على الأرض غير كافية، ونصَّبوا أنفسهم مُصحِّحين للقانون. إنهم هم مَن قتلوا الجنرال تريلوفيتش، قائد عمليات اغتيال العائلة المالكة في صربيا، وشنقوا متعهد الجيش الفرنسي، كونراد، في ساحة الكونكورد، رغم وجود مئات من رجال الشرطة بالقرب من الساحة، وأطلقوا النار على هيرمون لو بلوا، الشاعر والفيلسوف، فأردَوْه قتيلًا في مكتبه لإفساده لشباب العالم بإعماله للفكر.»

بعد ذلك سَلَّم وزير الخارجية لممثلنا قائمة بالجرائم التي ارتكبها هذا الرباعي الاستثنائي.

سوف يتذكر قراؤنا ملابساتِ كل جريمة قتل، وسيظل ماثلًا في الأذهان أنه حتى يومنا هذا، مع احتفاظ الشرطة في بلدانٍ مختلفة بسر رجال العدالة الأربعة، لم تُرْبَط أي جريمة من هذه الجرائم بالأخرى، ومن المؤكد أن أيًّا من هذه الملابسات التي لم تُنشر للجمهور قبل اليوم، لو كانت قد نُشِرَت، من المؤكَّد أنها كانت ستكشف عن وجود هذه العصابة.

في وُسْع صحيفة «ديلي ميجافون» أن تنشر قائمةً كاملة بست عشرةَ جريمةَ قتلٍ ارتكبها هؤلاء الرجال الأربعة.

«منذ عامَين، بعد إطلاق النار على لو بلوا، وعن طريق خللٍ ما في ترتيباتهم شبه المثالية، تعرَّف أحد رجال التحري على واحد من الأربعة؛ إذ رآه يغادر منزل لو بلوا في شارع كليبر، واقتُفي أثره لثلاثة أيام، على أمل إمكانية القبض على الأربعة مجتمعين. في النهاية اكتشف أنه كان مُراقَبًا، وحاول الهرب. ضيَّق رجال الشرطة الخناق عليه وحُوصر في مقهى في مدينة بوردو؛ إذ كانوا قد تتبَّعوه من باريس، وقبل أن يُقْتَل أطلق النار على أحد رقباء شرطة المدينة وشرطيَّين آخرَين. التُقِطَت صورته، ووُزِّعَت نُسخٌ منها في أنحاء أوروبا، ولكن ظلت هُويته وعمله وحتى جنسيته لغزًا غامضًا حتى يومنا هذا.»

«لكن هل ما زال الأربعة موجودين؟»

هزَّ السير فيليب كتفَيه، ثم قال: «إما أنهم ضموا واحدًا آخر، أو أنهم يعملون منقوصين.»

اختتم وزير الخارجية حديثه قائلًا:

«إنني أُعلِن هذا عبر الصحافة، حتى يدرك الرأي العام الخطر الذي لا يُهدِّدني وحدي وإنما أي واحد من الشخصيات العامة يعارض رغبات هذه القوة الشريرة. السبب الثاني الذي دعاني إلى ذلك هو أن الرأي العام، عندما يعرف حقيقة الأمر، يمكن أن يعاون أولئك المسئولين عن الحفاظ على القانون والنظام في تنفيذِ مهامِّ عملهم، ويمنعوا، من خلال يقظتهم، ارتكاب المزيد من الأعمال غير المشروعة.»

لم تسفر التحقيقات التي أُجريت لاحقًا في سكوتلاند يارد عن المزيد من المعلومات حول المسألة باستثناء أن إدارة التحقيقات الجنائية كانت على تواصُل مع قادة الشرطة في أنحاء القارة الأوروبية.

فيما يلي قائمةٌ كاملة بجرائم القتل التي ارتكبها رجال العدالة الأربعة، بالإضافة إلى التفاصيل التي توصلَت إليها الشرطة فيما يتعلق بالسبب وراء الجرائم. ونحن مدينون بالفضل لوزارة الخارجية لإعطائها الإذن بنشر القائمة.

لندن

السابع من أكتوبر، ١٨٩٩. توماس كاتلار، مالك محل ترزي، عُثِر عليه قتيلًا في ظروفٍ غامضة. أصدرت هيئة محلَّفي الطب الشرعي حكمها التالي: «قتلٌ عمد على يد شخص أو أشخاصٍ مجهولين.»

(الدافع وراء القتل الذي تيقنَت منه الشرطة: أن كاتلار، الذي كان رجلًا ذا حيثية، وكان اسمه الحقيقي بينتفيتش، كان رب عملٍ يُوظِّف العمالة بشروطٍ مهينة على وجه الخصوص. أُدين ثلاث مرات بموجب قانون المصانع. تعتقد الشرطة أنه كان ثَمَّةَ سببٌ آخر أكثر حميميةً وراء القتل مرتبط بمعاملة كاتلار للنساء العاملات.)

لييج

الثامن والعشرين من فبراير، ١٩٠٠. جاك إليرمان، محافظ، قُتِل رميًا بالرصاص أثناء عودته من دار الأوبرا. كان إليرمان رجلًا شريرًا سيئ السمعة، وبالتحري عن شئونه بعد وفاته تبيَّن أنه كان قد اختلس ما يقرُب من ربع مليون فرنك من الأموال العامة.

سياتل

كنتاكي، أكتوبر، ١٩٠٠. القاضي أندرسون، عُثِر عليه ميتًا خنقًا في حجرته. حُوكم أندرسون ثلاثَ مراتٍ في حياته على خلفية اتهامات بالقتل. كان زعيم جماعة أندرسون في الخصومة بين جماعتَي أندرسون وهارا. قَتَل ما مجموعُه سبعةٌ من عشيرة هارا، ووُجِّه إليه الاتهام ثلاثَ مراتٍ وأُطْلِق سراحُه ثلاثَ مراتٍ بناءً على حكمٍ بأنه غير مذنب. الجدير بالذكر أنه في المرة الأخيرة، عندما اتُّهِم بالقتل الغادر لرئيس تحرير صحيفة «سياتل ستار»، صافَحَ أعضاء هيئة المحلَّفين المحتشدين وهنَّأهم.

نيويورك

الثلاثين من أكتوبر، ١٩٠٠. باتريك ويلش، محتال سيئ السمعة وسارق للأموال العامة. كان في وقتٍ ما أمين خزانة المدينة؛ الشخصية المُحرِّكة لنقابة رصف الشوارع الشهيرة،

فضَحَتْه صحيفة «نيويورك جورنال». عُثِر على ويلش مشنوقًا في غابةٍ صغيرة في لونج أيلاند. اعتُقِد حينئذٍ أنه انتحر.

باريس

الرابع من مارس، ١٩٠١. مدام ديسبارد، مخنوقة. اعتُبِرَت هذه الوفاةُ أيضًا انتحارًا حتى وصلَت معلوماتٌ معينة إلى حوزة الشرطة الفرنسية. لا يمكن ذِكر مدام ديسبارد بأي خير؛ كانت «مُتاجِرةً بالأرواح» سيئة السمعة.

باريس

الرابع من مارس، ١٩٠٢ (بعد عام بالضبط). مسيو جابرييل لانفان، وزير المواصلات. عُثِر عليه مقتولًا رميًا بالرصاص في عربته في حديقة بوا دي بولون. قُبِض على سائق عربته ولكن أُطلِق سراحه في النهاية. أقسَم الرجل إنه لم يسمع لا صوت طلقة ولا صيحة من سيده. كان المطر يهطل في ذلك الحين، وكان يُوجد القليل من المشاة في حديقة بوا دي بولون.

(ثم أتت الصحيفة على ذكر القضايا العشر الأخرى تباعًا، شأنها شأن القضايا المذكورة أعلاه، بما في ذلك قضيَّتَا تريلوفيتش ولو بلوا.)

كان بلا شك تحقيقًا صحفيًّا عظيمًا.

أعاد رئيس التحرير، وهو جالس في مكتبه، قراءته بتمعُّن وقال: «ذلك جيد جدًّا حقًّا.»

قرأه الصحفي، الذي كان اسمه سميث، بتمعُّن وتورَّد وجهه بسرور وهو يُطالِع نتائج إنجازه.

قرأه وزير الخارجية في سريره وهو يحتسي شاي الصباح، وسأل نفسه، مقطبًا جبينه، ما إن كان قد قال أكثر مما ينبغي.

قرأه رئيس الشرطة الفرنسية، مُترجَمًا ومُرسَلًا في برقيةٍ تِلِغْرافية، في صحيفة «لوتومب»، وأخذ يصُب لعناتِه بغضب على الإنجليز الثرثارين الذي كانوا يُفسِدون خططه.

في مدريد، في مقهى دي لا بيه، في الهواء الطلق، أخذ مانفريد يقرأ، بسخرية وتهكُّم ومبتسمًا، مقتطفاتٍ على رجال ثلاثة؛ كان اثنان منهم يبتسمان في سرور، أما الثالث ذو الوجه العريض الخدَّين والشاحب فكان الخوف من الموت باديًا في عينَيه.

الفصل الثاني

الرفاق المخلصون

أورد أحدهم — هل كان السيد جلادستون؟ — أنه لا يُوجد شيءٌ أخطر، ولا أشرس، ولا أرهب من رعيةٍ غاضبين. وبالمثل، كما نعرف، لا يُوجد شخصٌ يضاهي في طيشه، ولا ثرثرته الحمقاء ولا رعونته المدهشة دبلوماسيًّا أتى لسبب أو لآخر، بتصرفاتٍ غير مقبولة.

يأتي على الرجل الذي درَّب نفسه على مراقبة لسانه في مجالس الأُمم، والذي تعلَّم أن يسير بحذرٍ وسطَ فِخاخٍ حفَرتْها له قوًى صديقة، لحظة تُنسى فيها ممارساتُ ومبادئ سنينَ كثيرة، ويتصرف بطريقةٍ إنسانية. لم يكتشف الأشخاص العاديون مطلقًا الأسباب وراء ذلك، مع أن الأشخاص المنتمين إلى الأقلية النفسية الذين يمكنهم عمومًا تفسير العمليات العقلية لرفاقهم، لديهم بلا شك أسبابٌ كافية ومقنعة جدًّا لهذه الأفعال غير المتزنة.

كان السير فيليب رامون رجلًا ذا مزاجٍ خاص.

لا أظن أن شيئًا في العالم الواسع كان يمكن أن يُثنيه عن هدفه ما إن يحسم أمره بشأنه. كان رجلًا قوي الشخصية، ثابت العزم، عريض الفك، واسع الفم، في عينَيه تلك الدرجة من الزرقة التي يجدها المرء في المجرمين الشديدي القسوة، وبخاصة الجنرالات المشهورين. ومع ذلك فقد فَزِع السير فيليب رامون، كما تخيل قلةٌ من الرجال أنه فَزِع، من عاقبة المهمة التي حددها لنفسه.

يُوجد آلاف من الرجال الذين يتسمون بأنهم أبطال من الناحية البدنية وجبناء من الناحية الأخلاقية، رجال يضحكون في وجه الموت، ويعيشون في رعب من الإحراج الشخصي. وتستمع محاكم الطب الشرعي يوميًّا إلى قصة حياة وموت أمثال هؤلاء الرجال.

كان وزير الخارجية على النقيض من هذه الصفات. من شأن الرجال الطيبين الذين يتسمون بالخشونة أن يصفوا الوزير دون تردُّد بأنه جبان؛ لأنه خشي الألم وخشي الموت.

في اجتماع مجلس الوزراء بعد يومَين من نشر تحقيق صحيفة «ميجافون»، قال رئيس الوزراء بلطف: «إذا كان هذا الأمر يقلقك بشدة، فلماذا لا تسحب مشروع القانون؟ على أي حال، تُوجد شئونٌ أهمُّ يمكن أن تشغل وقت البرلمان، ونحن على مشارف نهاية الدورة التشريعية.»

سرت همهَمة موافقة حول المائدة.

«إن لدينا كل ذريعة لسحب مشروع هذا القانون. لا بد أن مذابحَ مُروِّعة ستحدث للأبرياء، ولا بد من إقرار مشروع قانون برايثوايت للبطالة؛ فالرب وحده يعلم ما سيقوله الناس عن ذلك.»

ضرب وزير الخارجية المائدة بقبضته وهو يقول: «لا، لا! لا بد من الموافقة عليه؛ أنا مُصِرٌّ على ذلك. إننا نُخلِف عهدنا مع البرلمان الإسباني، ونُخلِف عهدنا مع فرنسا، ونُخلِف عهدنا مع كل دولة في الاتحاد. لقد وعدتُ بالحصول على الموافقة على هذا الإجراء، ويجب أن نمضي في الأمر، حتى في وجود ألفٍ من أمثال رجال العدالة الأربعة، وألف تهديد.»

هزَّ رئيس الوزراء كتفَيه.

قال بولتون، وزير العدل: «معذرة يا رامون لقول ذلك، ولكن لا يسعني إلا أن أشعر أنك لم تكن حريصًا في إعطائك لتصريحات تفصيلية للصحافة. أجل، أعرف أننا اتفقنا على أن يكون لك حرية التصرف في التعامل مع المسألة كما شئت، ولكنني بطريقةٍ ما أعتقد أنه لم يكن يجب أن تكون. ماذا ينبغي أن أقول؟ صريحًا هكذا.»

أجاب رامون بجفاء: «إن سلطتي التقديرية في هذه المسألة، يا سير جورج، ليست موضوعًا يهمني مناقشته.»

لاحقًا، وبينما كان يسير عبر طريق بالاس يارد بصحبة وزير الخزانة ذي الطلعة الشابة، قال وزير العدل، باستياءٍ شديد من الرفض، فيما يتصل بما سبق: «يا له من حمارٍ عجوز أحمق!» فابتسم الحارس الشاب على شئون بريطانيا المالية.

وقال: «إحقاقًا للحق، إن رامون في مأزقٍ حرج للغاية. إن قصة رجال العدالة الأربعة حديثُ كل النوادي والمجالس، بل إن رجلًا التقيتُ به في فندق كارلتون على الغداء أقنعني بأنه يُوجد حقًّا ما يدعو للخوف. وكان جادًّا في حديثه هذا؛ لأنه عاد للتوِّ من أمريكا الجنوبية ورأى هناك بعض أعمال هؤلاء الرجال.»

«ما الذي رآه؟»

«رئيس أو شيء من هذا القبيل لإحدى هذه الجمهوريات الصغيرة الفاسدة. من حوالي ثمانية شهور؛ ستجد هذه الواقعة في القائمة. لقد شنَقوه. فعلوا به أغرب ما يمكن أن

يُفعَل. أخذوه من فراشه في منتصف الليل، وكمَّموه، وعصبوا عينَيه، وحملوه إلى السجن العمومي، وتمكَّنوا من دخوله، وشنقوه في المشنقة العامة، وهربوا!»

رأى وزير العدل ما يُحيط بوقائعَ كتلك من صعوبات، وأوشك أن يُعْرِب عن رغبته في معرفة المزيد من المعلومات، حينما دنا وكيل وزارة الخزانة من وزيره، واصطحبه معه. تمتم وزير العدل بغضب قائلًا: «عبث.»

استُقْبِل وزير الخارجية بالهتافات وعربتُه تمر عبر الحشد الذي اصطف في مدخل البرلمان. لم يشعر بالابتهاج لذلك إطلاقًا؛ لأنه لم يكن ممن يشتهون الشهرة. كان يعرف بالفطرة أن هذا الهتاف كان مرجعه إلى تقدير العامة لمخاطرته، وجعلت معرفتُه تلك قُشَعريرة تسري في جسده وأشعَرتْه بغضبٍ شديد. كان يود أن يظن أن الناس سخروا من وجود هؤلاء الأربعة الغامضين؛ كان سيشعر ببعضٍ من راحة البال لو كان بوسعه أن يُفكِّر أن «الناس نبذوا الفكرة.»

ومع أن الشهرة أو عدمها لم تكن من ضمن أساسياته، لكنه كان لديه إيمانٌ لا يتزعزع في الغرائز الهمجية للغوغاء. في بهو البرلمان كان محاطًا بحشد من الرجال المتحمسين من حزبه، الذين كان التساؤل يبدو على وجوه بعضهم، والبعض الآخر كان متلهفًا، وتعالت أصواتهم كلهم تطلب معرفة آخر المعلومات، وكانوا كلهم يخشون قليلًا من لسان الوزير اللاذع.

«اسمع، يا سير فيليب.» كان المتحدث نائب بروندسبيري الجريء غير اللبِق، «ما كل هذا اللغط الذي نسمعه عن رسائل التهديد؟ من المؤكد أنك لن تُلقي بالًا لأمور من هذا القبيل؛ عجبًا، أنا شخصيًّا أتلقى رسالتَين أو ثلاثًا يوميًّا.»

مضى الوزير في سبيله في نفاد صبر مبتعدًا عن المجموعة المحتشدة، ولكن تيستر، وهو أحد النواب، أمسك بذراعه.

بادره بالحديث، قائلًا: «اسمع!»

قال وزير الخارجية دون تصنُّع: «اذهب إلى الجحيم.» وسار بسرعة متجهًا إلى غرفته.

قال النائب الموقَّر في قنوط: «من المؤكد أن ذلك الرجل في حالٍ معنوية فظيعة. حقيقة الأمر أن رامون في حالٍ من الكآبة الشديدة. إن فكرة إحداث الكثير من الإثارة حول رسائل التهديد ليست بالفكرة الصائبة! فأنا أتلقَّى ...»

تناقشَت مجموعة من الرجال في قاعة تدخين النواب مسألة رجال العدالة الأربعة بطريقةٍ غير مبتكرة على الإطلاق.

قال أحدهم بفظاظة: «إنه أمرٌ سخيف للغاية. ها هم أربعة رجال، أربعةٌ غامضون، اتحدوا ضد كل القوى والكيانات الراسخة لأكثر أمةٍ متحضرة على وجه الأرض.»

قاطعه سكوت، عضو البرلمان، قائلًا بحكمة: «باستثناء ألمانيا.»

رجاه المتحدث الأول بطريقةٍ لاذعة: «أوه! دع ألمانيا خارج هذا الموضوع، بحق الرب. لكم أود حقًّا، يا سكوت، أن يكون بوسعنا أن نناقش موضوعًا ولا تُقحم فيه مسألة تفوُّق المؤسسات الألمانية.»

قال سكوت بمرح، مطلقًا العِنان لنفسه في الحديث عن موضوعه المُفضَّل: «تذكَّر أنه في الحديد والصلب وحدهما زاد نصيب الفرد من العمالة من الإنتاج بنسبة ٤٣ بالمائة، حتى إن شحنها ...»

تساءل النائب البرلماني العجوز عن ألدجيت إيست، محررًا تركيزه من ثرثرة الإحصائيات: «أتظن أن رامون سيسحب مشروع القانون؟»

«رامون؟ هذا ليس من شيمه. إنه يُفضِّل الموت على أن يفعل ذلك.»

قال النائب عن ألدجيت إيست: «إنه ظرفٌ غير عادي البتة.» وأومأ نواب ثلاثِ مقاطعات، ونائب عن ضواحي لندن، وآخر عن مدينة في وسط إنجلترا مُصدِّقين على قوله وأنهم «ارتأوا ذلك.»

أشار نائب ألدجيت إيست إلى عضوٍ مسن في مجلس اللوردات محني القامة أبيض اللحية والشعر، كان يمشي بصعوبةٍ صوب مقعد، قائلًا: «في الأيام الخوالي، عندما كان العجوز باسكو نائبًا شابًّا، في الأيام الخوالي ...»

علق مستمع لا علاقة له بالحديث: «كنت أظن أن باسكو قد مات. ألم يمت؟!»

تابع نائب إيست إند حديثه قائلًا: «في الأيام الخوالي، قبل أزمة فينيان ...»

استطرد سكوت بحماس: «الحديث عن الحضارة. قال راينباكن الشهر الماضي في مجلس العموم: «لقد وصلت ألمانيا إلى مرحلة ...»»

تابع نائب ألدجيت إيست بجدية: «لو كنتُ مكان رامون، لعرفت بالضبط ما ينبغي عليَّ فعله. كنت سأذهب إلى الشرطة وأقول: «اسمعوا ...»»

دق جرسٌ بقوة ودون توقُّف، ومضى النواب يُهرولون عَبْر الممر «التقسيم. الرؤية.»

بعد أن تمت تسوية البند التاسع من مشروع قانون تحسين ميدواي على نحوٍ مُرضٍ وأضافت الأغلبية المنتصرة البالغ عددها أربعة وعشرين عضوًا عبارة «أو كما سيتحدَّد فيما بعدُ.» عاد أعضاء مجلس العموم المخلصون إلى النقاش الذي كان قد قُطِع.

استطرد شخصٌ ذو حيثية: «ما أقصِد أن أقوله، وما كنتُ أقولُه دومًا عن رجل في مجلس الوزراء هو أنه يجب عليه، إن كان رجل دولة حقًّا، أن يُسْقِط أي اعتبار في سبيل مشاعره الشخصية.»

صفَّق أحدهم: «أنصتوا!»

كرَّر الخطيب قوله: «مشاعره الشخصية. يجب أن يضع واجبه نحو الدولة قبل كل الاعتبارات الأخرى. أتذكُرون ما قلتُه لبارينجتون في تلك الليلة الفائتة عندما كنا نتناقش حول التقديرات؟ قلتُ: «إن الرجل الشريف بحقٍّ لم يأخذ، لم يستطع أن يأخذ، بعين الاعتبار الرغبات القوية وشبه المُجْمَع عليها لجمهور الناخبين العظيم. إن تصرُّف وزيرٍ من وزراء التاج لا بد أن يخضع في المقام الأول للتقدير الذكي لجمهور الناخبين العظيم، الذي لمشاعره الرفيعة» لا، «الذي لغرائزه العليا» لا، لم يكن هذا ما قلته. على أي حال أوضحت بجلاءٍ شديد كُنْه واجب وزير التاج.» واختتم خطبته بطريقةٍ خرقاء.

شرع نائب ألدجيت إيست، يقول: «حسنًا أنا ...» حين اقترب أحد الخدم يحمل صينية عليها ظرفٌ رمادي مخضر.

وسأل: «هل سقط هذا من أحد السادة؟» فتناول النائب الظرف متحسِّسًا جيبه بحثًا عن نظارته.

وقرأ مكتوبًا عليه: «إلى أعضاء مجلس العموم.» ثم نظر من فوق نظارته الأحادية إلى دائرة الرجال المتحلِّقين حوله.

قال نائب ويست بروندسبيري الجريء، الذي كان قد انضم إلى الجمع: «نشرة إعلانية من إحدى الشركات؛ إنني أتلقى المئات منها. منذ بضعة أيام فقط ...»

قال نائب ألدجيت إيست، وهو يزن الرسالة في يده: «إنها أخفُّ بكثير من أن تكون نشرةً إعلانية.»

أصَرَّ نائب بروندسبيري: «عقارٌ مُسجَّل، إذن. يأتيني واحدٌ كلَّ صباح. «لا تُشعل الشمعة من كلا طرفَيها»، وأمثال هذا الهُراء. الأسبوع الماضي أَرسلَ لي أحد الرجال ...»

قال أحدهم مقترحًا: «افتحه.» وأذعن النائب لقوله. قرأ بضعة سطورٍ واحمَرَّ وجهه. شهِق قائلًا: «لتحل عليَّ اللعنة!» ثم تلا عليهم المكتوب:

أيها المواطنون

إن الحكومة على وشك أن تُقر في هيئةِ قانونٍ إجراءً من شأنه أن يُسلِّم للحكومات الأكثر شرًّا في العصور الحديثة رجالًا وطنيِّين ومن المُقدَّر لهم أن

يكونوا مُخَلِّصي بلادهم. لقد أبلغنا الوزير المسئول عن هذا الإجراء، الذي تظهر صفته في الهامش، أنه إذا لم يسحب مشروع هذا القانون فسنَذبحُه من دون شك.

يُؤسفنا أشدَّ الأسف أن نأخذ هذه الخطوة الخطيرة؛ إذ نعلم أن السير فيليب رامون، باستثناء موقفه هذا، رجلٌ مخلص وشجاع، وتجنبًا لتنفيذ هذا الوعيد نُطالِب أعضاء أعرق برلمانات العالم باستعمال نفوذهم لإجباره على سحب مشروع هذا القانون.

لو كنا قتلةً عاديِّين أو فوضويِّين حمقى، كان سيُصبح من السهل علينا أن نعيث انتقامًا أعمى وعشوائيًّا على أعضاء هذا البرلمان، ولنُثبت ذلك، ولكي نؤكِّد أن تهديدنا ليس أجوف، نرجوكم أن تُفتِّشوا تحت المائدة القريبة من مدخل هذه الغرفة. ستجدون قنبلةً تكفي شحنتها لتدمير معظم هذا المبنى.

توقيع
رجال العدالة الأربعة

ملحوظة: لم نضع في هذه القنبلة صاعق تفجير ولا صمام إشعال، ولذلك يمكن التعامل معها بأمان.

ما إن استُكمِلَت قراءة الرسالة حتى امتُقِعَت وجوه المستمعين.

كان ثَمَّةَ شيءٌ مقنع جدًّا في نبرة الرسالة، وبحركةٍ غريزية اتجهَت كل الأعين إلى المائدة القريبة من مدخل الغرفة.

كان يُوجد بالفعل شيءٌ ما، شيءٌ مربع أسود، وانكمش حشد رجال السلطة التشريعية متراجعًا. وقفوا للحظة مشدوهين، ثم انطلقوا في اندفاع محموم نحو الباب.

تساءل رئيس الوزراء بقلق: «هل كان مقلبًا؟» لكن الخبير الذي استُدعي على عجل من سكوتلاند يارد هَزَّ رأسه نفيًا.

قال بجديةٍ شديدة: «تمامًا كما وصفَتْها الرسالة، حتى فيما يتعلق بعدمِ وجود صمامات إشعال.»

«هل كانت حقًّا؟»

أجابه: «كافية لتدمير مبنى البرلمان، يا سيدي.»

مضى رئيس الوزراء إلى حجرته الخاصة وقلقٌ بالغ يكسو وجهه.

توقَّف مرةً لينظر بكآبة عبر النافذة التي كانت تُطل على فناءٍ مزدحم وحشد من السياسيين المتحمِّسين الذين يأتون بحركاتٍ بأيديهم والجميع يتكلم، كما كان واضحًا، في الوقت نفسه.

تمتَم محدثًا نفسه: «الأمر جِدُّ خطير، جِدُّ خطير.» ثم قال بصوتٍ مسموع: «لقد قلنا الكثير عن هذا الأمر ويمكننا أن نستمر في ذلك. أعطوا الصحف كلها سردًا لما جرى عصر اليوم وفقًا لما يعتبرونه ضروريًّا، وأعطوهم نص الرسالة.» ضغط زرًّا أمامه فدخل سكرتيره بهدوء.

«اكتب إلى حكمدار الشرطة وأخبره أن يعرض مكافأة ألف جنيه لمن يقبض على الرجل الذي ترك هذا الشيء وعفوًا شاملًا ومكافأة لأي متواطئ معه.»

انسحب السكرتير وبقي خبير سكوتلاند يارد.

«هل اكتشفتم كيف أُدْخِلَت القنبلة؟»

«لا، يا سيدي؛ لقد صرفنا أفراد الشرطة كلهم وأخضعناهم لاستجوابٍ منفصل. وهم لا يتذكرون أنهم رأوا أي شخصٍ غريب يدخل أو يغادر البرلمان.»

لوى رئيس الوزراء شفتَيه مفكرًا.

قال ببساطة: «شكرًا لك.» وانسحب الخبير مغادرًا.

على شُرفة البرلمان تقاسم نائب ألدجيت إيست والنائب الخطيب أدوار البطولة.

قال الأخير بطريقةٍ مؤثرة: «لا بد أنني كنتُ واقفًا قريبًا جدًّا منها، وأقسم بشرفي إن رعدة تسري في جسدي كله عندما أفكر في الأمر. أتذكُر، يا ميلين؟ كنت أتكلم عن واجب الوزير ...»

قال نائب ألدجيت للنواب الشغوفين الذين كانوا يتحلَّقون حوله: «لقد سألتُ النادل عندما أحضر الرسالة: «أين وجدتها؟»

فقال: «على الأرض، يا سيدي.» ظننتُ أنها دعايةٌ دوائية؛ لم أكن سأفتحها، لولا أن شخصًا ما ...»

قال السيد الجريء من بروندسبيري متفاخرًا: «كان ذلك هو أنا؛ تتذكر قولي لك ...»

تابع نائب ألدجيت بلطف: «كنت أعرف أن أحدًا ما هو من قال ذلك. فتحتها وقرأت السطور القليلة الأولى، وقلت: «ليُبارك الرب روحي ...»»

صحَّح نائب بروندسبيري له قوله: «لقد قلتَ: «لتحلَّ عليَّ اللعنة».»

أقرَّ نائب ألدجيت بصحة كلامه قائلًا: «حسنًا، أعرف أنه كان شيئًا قريبًا جدًّا من هذا المعنى. قرأت الرسالة، وستفهمون جيدًا ما أقوله، لم أستطع أن أستوعب مغزاها، إن جاز القول. حسنًا ...»

شُغِلَت المقاعد الثلاثة المحجوزة في قاعة ستار الموسيقية بشارع أكسفورد، واحدًا تلو الآخر. في السابعة والنصف جاء مانفريد، مرتديًا ملابس مناسبة؛ وفي الثامنة جاء بويكارت، في ملابس سيد كهل ميسور إلى حد ما؛ وفي الثامنة والنصف جاء جونزاليس يسأل بلغةٍ إنجليزية متقنة عن البرنامج. وجلس بين الاثنَين الآخرَين.

عندما تعالى هتاف جمهور الطابق الأرضي والشرفة إعجابًا بأغنيةٍ وطنية، التفت مانفريد مبتسمًا إلى ليون، وقال:

«لقد طالعتُ الأمر في صحف المساء.»

أومأ ليون برأسه في هدوء.

وقال: «لم يكن في الأمر مشقَّة تقريبًا. عندما دخلتُ كان أحدهم يقول: «كنت أظن أن باسكو قد مات.» وكاد أحدهم أن يقترب مني ويبادلني الحديث.»

الفصل الثالث

مكافأة الألف جنيه

ليس من المبالغة أن نقول، مقتبسين ما ورد في أكثر من مقالٍ رئيسي في الموضوع، إن الحدث الاستثنائي الذي وقع في مجلس العموم أثار ضجةً هائلة في الأوساط في إنجلترا كلها.

كانت الصحف قد تلقَّت أول تلميح بوجود «رجال العدالة الأربعة» بسخرية تُغْتَفَر، وتحديدًا من جانب تلك الصحف التي تأخَّرت في نشر الأخبار الأُولى. كانت صحيفة «ديلي ميجافون» هي الصحيفة الوحيدة التي أقرت بصدقٍ وجدية بأن الخطر، الذي كان يهدد الوزير المسئول عن مشروع القانون البغيض، كان حقيقيًّا تمامًا. ولكن الآن، لم يكن بمقدور أحد ولا حتى أشد المتهكمين أن يتجاهل خطورة الرسائل التي وجدَت سبيلها على نحوٍ غامض إلى قلب المنشأة التي تحظى بأكبر قدْرٍ من الحراسة المشدَّدة في إنجلترا. امتلأت صفحات كل الصحف في أنحاء البلاد بخبر «اعتداء القنبلة»، ووُضِعَت ملصقاتٌ في طول الجزر البريطانية وعرضها عن آخر مغامرةٍ جريئة أقدم عليها رجال العدالة الأربعة.

ظهرت من يوم لآخر أخبار، أغلبها ملفَّق، عن الرجال الذين كانوا مسئولين عن الضجة الكبيرة الأخيرة، ولم يعد للناس، حين يلتقون، حديثٌ إلا عن موضوع الأربعة المجهولين الذين بدا أنهم يتحكمون في مصائر الساسة النافذين.

منذ أيام الهجمات الفينيانية لم تمتلئ أذهان العامة بالتوجُّس مثلما كانت خلال اليومَين اللذَين أعقبا ظهور «القنبلة الجوفاء»، في وصفٍ موفَّق لإحدى الصحف، في مجلس العموم.

ربما بالنوع نفسه من التوجُّس بالضبط، كان ثَمَّةَ اعتقادٌ عام، نتج عن منحى الرسائل، أن الأربعة لم يكونوا يتوعَّدون إلا رجلًا واحدًا.

كان أول تلميح إلى نواياهم قد أثار اهتمامًا واسعًا. لكنَّ حقيقة أن التهديد انطلق من بلدةٍ فرنسية صغيرة، وأنه تبعًا لذلك كان الخطر بعيدًا جدًّا، سلبَت التهديد بعضًا من

قُوَّته. هكذا كان المنطق الملتبس لأناسٍ لا يفقهون شيئًا في الجغرافيا ولم يعوا أن داكس لا تبعُد عن لندن أكثر من المسافة التي تبعُدها أبردين.

لكن كان ثَمَّةَ رعبٌ خفي في العاصمة نفسها، فكان اللندنيون يقولون لمَ لا يُحْتَمَل أن يكون أيٌّ من الرجال الذين نحتك بهم أثناء سيرنا واحدًا من «الأربعة»، ونحن لا ندرى.

ظهرت ملصقاتٌ كئيبة ذات شكلٍ أسود على الحوائط الخالية، وامتلأت بها كل لوحات إعلانات الشرطة.

مكافأة ١٠٠٠ جنيه

لَمَّا كان في الثامن عشر من أغسطس، في حوالي الساعة الرابعة والنصف من عصر ذلك اليوم، وضع رجل أو رجالٌ مجهولون قنبلةً خطيرة في قاعة التدخين بدار البرلمان.

ولَمَّا كان يُوجد ما يدعو للاعتقاد بأن الشخص أو الأشخاص المتورطين في وضع القنبلة السالفة الذكر أعضاءٌ في كيان إجرامي يُعرَف باسم «رجال العدالة الأربعة»، أُصدِرَت بحقهم مذكراتُ ضبط على خلفية جرائم قتلٍ عمد في لندن، وباريس، ونيويورك، ونيو أورليانز، وسياتل (الولايات المتحدة الأمريكية)، وبرشلونة، وتومسك، وكريستيانيا، وكيب تاون، وكاراكاس.

لذلك، ستُقدِّم حكومة جلالة الملك المكافأة المذكورة أعلاه لأي شخص أو أشخاصٍ يُقدِّمون معلوماتٍ تُؤدِّي إلى القبض على أحد أو كل الأشخاص الذين يُسمُّون أنفسهم «رجال العدالة الأربعة» وتنطبق أوصافهم على العصابة المذكورة سابقًا.

فضلًا عن ذلك، سيُقَدَّم عفوٌ شامل وستُمنَح المكافأة لأي عُضوٍ في العصابة يتقدَّم بمعلومات، بشرط ألا يكون الشخص المتقدم بالمعلومات قد ارتكب أو اشترك معهم قبلُ أو بعدُ في أيٍّ من جرائم القتل التالية.

توقيع
رايدي مونتجمري، وزير جلالة الملك للشئون الداخلية
جيه بي كالفورت، حكمدار الشرطة
يتبع هذا قائمة بست عشرة جريمةً منسوبة إلى الرجال الأربعة
حفظ الله الملك

طَوالَ اليوم أخذ الناس يتجمعون بأعدادٍ قليلة أمام اللوحات الإعلانية، ليستوعبوا العرض الرائع.

كانت ملاحقةً غير معتادة للمجرمين، تختلف عن تلك التي كان اللندنيون يعرفونها حق المعرفة؛ فلم يكن ثَمَّةَ أوصافٌ للرجال المطلوبين، ولا صور يمكن بواسطتها التعرف عليهم، ولا جملةٌ نمطية من قبيل «عندما شُوهد آخرَ مرة كان يرتدي بذلةً زرقاء غامقة من صوف سيرج، وقُبَّعة من القماش، وربطةَ عنقٍ مقلَّمة.» يمكن لمن يُفتِّش عن المجرمين أن يستند إليها وهو يُدقِّق في المارة.

كان الأمر عبارةً عن بحثٍ عن أربعة رجالٍ لم يسبق لأي شخصٍ أن رآهم من قبلُ، مطاردة لسراب، تخبُّط في الظلام في أعقاب أطيافٍ غير محددة.

قال كبير ضباط المباحث فالموث، الذي كان معروفًا بصراحته الشديدة (ذات مرةٍ أوضح بفظاظة لأحد أفراد العائلة الملكية أنه ليس لديه عينان في مؤخرة رأسه)، وجهة نظره بالضبط في الأمر.

«لا يمكنك القبض على رجال وليس لديك أدنى فكرة عن هُوية مَن تبحث عنه أو كُنْهه. افترض جدلًا أنهم قد يكونون نساءً؛ قد يكونون صينيين أو زنوجًا؛ قد يكونون طِوال القامة أو قصارها؛ قد يكونون ... عجبًا، نحن لا نعرف حتى جنسيتهم! لقد ارتكبوا جرائم في كل بلد في العالم تقريبًا. إنهم ليسوا فرنسيِّين لأنهم قتلوا رجلًا في باريس، أو أمريكيين لأنهم خنقوا القاضي أندرسون.»

قال مفوض الشرطة، مشيرًا إلى مجموعة من الخطابات التي أمسكها في يده: «الكتابة.»

«لاتينية، لكنها قد تكون مُصطنَعة. وماذا لو افترضنا أنها ليست كذلك؟ لا فرق بين خط يد رجلٍ فرنسي، أو إسباني، أو برتغالي، أو إيطالي، أو من أمريكا الجنوبية، أو كريولي، وكما أقول، قد تكون مصطنعة، والأرجح أنها كذلك.»

سأله مفوض الشرطة: «وماذا فعلتم؟»

«تحرَّيْنا عن جميع الشخصيات المشتبه فيها التي نعرفها، وأجرينا حملات تمشيطٍ في أحياء ليتل إيتالي، وبلومزبيري، وسوهو، وفتَّشْنا في كل المناطق التي تقطنها جالياتٌ أجنبية، وداهمنا مكانًا في نانهيد الليلة الماضية؛ فكثير من الأرمن يعيشون هناك، ولكن ...»

بدت نظرة قنوط على وجه مفتش المباحث.

وتابع يقول: «على الأرجح أننا سنجدهم في أحد الفنادق الفخمة، هذا إذا كانوا أغبياء لدرجة أن يتجمعوا معًا في مكانٍ واحد، ولكن من المؤكد أنهم يعيشون متفرقين، ويلتقون في مكانٍ ما غير متوقَّع مرة أو مرتَين في اليوم.»

توقَّف عن الكلام، وأخذ ينقر بأصابعه في شرود على المكتب الكبير الذي يجلس عليه رئيسه.

تابع قائلًا: «أرسلنا في طلب دي كورفيل. لقد التقى بفناني سوهو، والأهم أنه التقى برجله الذي يعيش وسطهم، وأنا على استعدادٍ لأن أقسم إن المطلوبين ليسوا من هؤلاء، أو على الأقل هو يُقسِم على ذلك، وأنا على استعداد للأخذ بكلامه.»

هزَّ مفوض الشرطة رأسه على نحوٍ يدعو للشفقة.

قال: «إن السادة في داوننج ستريت في حالٍ من القلق المُروِّع. إنهم لا يعرفون بالضبط ماذا سيحدُث بعد ذلك.»

نهض السيد فالموث واقفًا وهو يتنهد ولمس بأصابعه حافة قُبَّعته محيِّيًا مفوض الشرطة.

علَّق يقول عكسَ ما يقصد: «أمامنا فترةٌ رائعة. بالطبع لا أظن ذلك.»

سأله مفوض الشرطة: «ما رأي الناس في الأمر؟»

«أطالعتَ الصحف؟»

كانت الطريقة التي هز بها مفوض الشرطة كتفَيه تنطوي على ازدراء للصحافة البريطانية.

قال بنزق: «الصحف! مَن بحق السماء سيلتفت أدنى التفاتةٍ لما تنشره الصحف؟!»

أجاب المفتش بهدوء: «أنا واحد من الذين سيفعلون؛ فالصحف في أغلب الأوقات تكون انعكاسًا لرأي الجمهور، ويبدو لي أن فكرة إدارة صحيفةٍ باختصار تقوم على كتابةِ ما من شأنه أن يجعل الجمهور يقول: «هذا رأيٌ ممتاز؛ هذا ما كنتُ أقوله على الدوام».»

«لكن ماذا عن الجمهور نفسه؟ هل أُتيحت لك فرصةُ تجميعِ آرائهم؟» أومأ فالموث برأسه إيجابًا «لقد كنتُ أتحدث في هايد بارك هذا المساء تحديدًا؛ كان مظهره يدل على أنه رجل ذو عقلٍ راجح، وعلى الأرجح ألمعي.» سألتُه: «ما رأيك في مسألة رجال العدالة الأربعة هذه؟» فقال: «إنها مسألةٌ غريبة. هل تظن أن في الأمر ما يُريب؟» وأنهى ضابط الشرطة حديثه باستياء قائلًا: «وذلك هو رأي العامة كلهم في الأمر.»

ولكن إن كان ثَمَّةَ حزن في سكوتلاند يارد، فإن شارع فليت، الذي يضم معظم الصحف، كان يعج بإثارةٍ ممتعة؛ فها هي أخبارٌ عظيمة بالتأكيد؛ أخبار يمكن أن تُنشر في عمودَين، وتُوضع لها عناوينُ جذابة، وتعج بالملصقات، وتُعضد بصور ورسومٍ توضيحية وتُوضَّح بإحصاءات.

تساءلت صحيفة «الكوميت» بطريقة صاخبة: «هل المافيا وراء الأمر؟» ومضت في إثبات أن الأمر كذلك.

أما صحيفة «إيفنينج ورلد»، بعقليتها التحريرية التي ما زالت تفضل البقاء في ستينيات القرن التاسع عشر، فارتأت أن وراء الأمر روح انتقام، وضربت مثلًا بـ «إخوة كورسيكا».

تمسَّكَت صحيفة «ميجافون» بقصة رجال العدالة الأربعة، ونشرت صفحات تحوي تفاصيلَ متعلقة بأعمالهم الشائنة، ونفضَت الغبار عن ملفاتٍ قديمة، منها ما هو متعلق بأحداث جرت في القارة الأوروبية، ومنها ما جرى في أمريكا، وأوردَت الملابسات الكاملة لكل جريمة قتل، وقدَّمَت وصفًا مفصَّلًا للرجال الذين قُتِلوا ولحياتهم المهنية، وأوردَت بنزاهة وحيادية تفاصيل عن حياة الضحايا، موضحةً أي نوع من الرجال كانوا، دون أن تقصد، بأي حال من الأحوال، من وراء ذلك تخفيفًا من جرم الأربعة.

وقبلَت بحذرٍ القدْر الكبير من المساهمات الذي تدفَّق على مكتب الصحيفة؛ فالصحيفة التي وُصِمَت بأنها «صحيفةٌ صفراء» تتوخَّى الحذر أكثر من الصحف المنافِسة الأكثر واقعية. في عالم الصحافة، نادرًا ما تُرصَد كذبةٌ مملة، ولكن من شأن مبالغةٍ مثيرة للاهتمام أن تقود منافسًا عديم الخيال إلى كيل إداناتٍ هستيرية.

تدفَّقَت بالفعل النوادر والحكايات حول رجال العدالة الأربعة؛ إذ فجأة، وكأن في الأمر سحرًا، اكتشَف كل مساهمٍ خارجي، وكل أديبٍ تخصص في كتابة ملاحظاتٍ شخصية، وكل من كان له باعٌ في الكتابة، أنه كان يعرف رجال العدالة الأربعة طيلة حياته.

كتب مؤلف رواية «عُد من جديد» (دار هاكوورث للنشر، ٦ إس: معرض كتب فارينجدون «المترب قليلًا»، ٢ دي): «عندما كنتُ في إيطاليا، أتذكَّر أنني سمعت قصة غريبة عن «رجال الدم» هؤلاء.»

أو ...

وكتب سيدٌ آخر، حشَر اسم «كولينز» في الزاوية الشمالية الشرقية من مخطوطه: «لا يُوجد موضع في لندن أرجح من حوض المد والجزْر لكي يكون مخبأ «الأربعة الأشرار». لقد كان حوض المد والجزر في عهد الملك تشارلز الثاني معروفًا بأنه ...»

سأل رئيس تحرير صحيفة «ميجافون» محرره المجتهد: «مَن كولينز هذا؟»

بَيَّن له المحرر بضجر: «مراسل صحفي بالقطعة.» كاشفًا بذلك عن أن الصحافة الأحدث لم تكن قد أبعدَت المساهم العابث عن مجاله الشاق، وأضاف: «إنه ينقل أخبار محاكم الشرطة، والحرائق، والتحقيقات، وأشياء من هذا القبيل. ومؤخرًا دخل مجال الأدب ويكتب مقتطفاتٍ رائعة عن لندن القديمة وملاحمَ شواهدِ قبور هورنسي الشهيرة.»

في سائر مكاتب الصحف كان الأمر نفسه يحدث. كانت كل برقية تصل، وكل معلومة تبلُغ سلة المحرر الفرعي تصطبغ بالمأساة الوشيكة التي تحتل موقع الصدارة في أذهان الرجال. احتوت حتى تقارير محاكم الشرطة على إشاراتٍ إلى رجال العدالة الأربعة؛ فقد صار المبرر لأحد الأشخاص اتُّهِم بالسُّكر ومخالفة النظام لتبرير رعونته.

قالت أم الصبي وهي تبكي: «لقد كان الصبي صادقًا دائمًا؛ إن قراءة هذه القصص المُروِّعة عن الأجانب الأربعة هي التي جعلَتْه يتبدل هكذا.» ونظر القاضي إلى الجُرم بعين العطف.

كان السير فيليب رامون، الرجل الأكثر اهتمامًا بتطور الأحداث، يتظاهر بأنه الأقل انشغالًا بالأمر.

رفض أن يُجري المزيد من المقابلات الصحفية، وأعرض عن مناقشة احتمالات تعرُّضه للاغتيال، حتى مع رئيس الوزراء، وكان رده على رسائل التقدير التي وصلَتْه من جميع أنحاء البلاد عبارةً عن إعلان في صحيفة «ذا مورنينج بوست» يطلُب فيه ممَّن يرسلون إليه تلك الرسائل أن يتكرموا بالتوقُّف عن إزعاجه بالبطاقات البريدية المصورة، التي لم يجد وسيلة للتخلُّص منها إلا أن يُودعها سلة مهملاته.

كان قد فكَّر في إضافة إعلان عن نيته في إقرار مشروع القانون عبر البرلمان مهما كان الثمن، ولم يُثنِه عن ذلك سوى خشيته من التصنُّع.

كان السير فيليب لطيفًا على غير معتاد مع فالموث، الذي أُوكِلت إليه بطبيعة عمله مهمةُ حماية وزير الخارجية من التعرُّض لأي أذًى، وسمَح بالتبعية لذلك الضابط الذكي أن يُدرِك لمحة من الرعب الذي يعيش فيه رجلٌ مُهدَّد بالموت.

سأله، ليس مرة بل عشرات المرات: «هل تظن أنه يُوجد أي خطر، أيها المفتش؟» وكان الضابط الذي كان مدافعًا قويًّا عن قوات الشرطة التي لا تخطئ أبدًا، يُطمئِنه دومًا.

وكان يُبرِّر ذلك لنفسه بقوله: «ما النفع من وراء بث الذعر في نفس رجلٍ متخوف بالفعل من الموت؟ إذا لم يحدث شيء، فسيرى أنني كنتُ أقول الحقيقة، وإذا. إذا. حسنًا؛ عندئذٍ لن يكون في مقدوره أن يدعوني كاذبًا.»

كان السير فيليب مصدر اهتمامٍ دائم لمفتش المباحث، الذي لا بد أنه قد أبدى ما يجول بخاطره مرةً أو مرتَين؛ وذلك لأن وزير الخارجية، الذي كان رجلًا ذكيًّا ذكاءً استثنائيًّا، لمح نظرةَ فُضولٍ على وجه ضابط الشرطة، وقال بحدَّة: «إنك تتساءل ما الذي يدفعني إلى الاستمرار في مشروع القانون مع علمي بالخطر الذي يتهدَّدني؟ حسنًا، لن يفاجئك أن تعرف أنني «لا» أعرف الخطر، ولا يمكنني أن أتخيله! أنا لم أتعرض لأي ألمٍ بدني في حياتي، وبغضِّ النظر عن حقيقة أنني أُعاني من ضعف في القلب، فإنني لم أشعر بأي ألم. ليس لديَّ أدنى فكرة عن الماهية التي سيكون عليها الموت، ولا عن الألم أو السكينة التي يمكن أن يجلبها. إنني أؤيد إبيكتيتوس في قوله إن الخوف من الموت نابع جزئيًّا من كونه افتراضًا وقحًا بمعرفة ماهية الحياة الأخرى، وإننا ليس لدينا ما يدعو إلى الاعتقاد بأنه حالٌ أسوأ من واقعنا. أنا لست خائفًا من الموت، وإنما خائف من سكراته.»

بتعاطُف ولكن دون أن يفهم مطلقًا، تمتَم المفتش، الذي لم يكن عقله يستوعب الفارق بين الموت وسكراته قائلًا: «بالضبط.»

استطرد الوزير، الذي كان يجلس في غرفة مكتبه في بورتلاند بليس: «ولكن إن لم يكن بوسعي أن أتخيل عملية الموت، فبوسعي أن أتخيل عاقبةَ أن ينقض المرء عهده مع ممثلي الدول، وقد جرَّبتُ ذلك بالفعل، ومن المؤكد أنني ليس لديَّ أي نية لتكديس مخزون من الإحراج في المستقبل خوفًا من شيء يمكن في النهاية أن يكون تافهًا نسبيًّا.»

هذا المنطق سيكون كافيًا للإشارة إلى ما كانت المعارضة في الوقت الراهن تسعَد بوصفه بأنه «العقلية الملتوية لصاحب الفخامة المحترم.»

وبينما كان المفتش فالموث يُنصِت وعلى وجهه أمارت الانتباه الكامل، تثاءب خفية وتساءل عمن كان إبيكتيتوس.

«لقد اتخذتُ كل الاحتياطات الممكنة، يا سيدي.» هكذا قال مفتش المباحث في لحظة التوقُّف التي أعقبت هذه التلاوة لمبادئه «آمل ألا تتضايق من أن يتبعك بعضُ رجالي مدة أسبوع أو أسبوعَين. أودُّ منك أن تسمح لضابطَين أو ثلاثة أن يبقَوا في المنزل أثناء وجودك هنا، وبالطبع سيتواجد عددٌ كبير من الضباط المناوبين في وزارة الخارجية.»

أبدى السير فيليب موافقته، ولاحقًا، عندما توجَّه في صحبة مفتش المباحث إلى البرلمان في مركبةٍ ذات مقصورةٍ مقفلة، فهم السبب وراء وجود موكبٍ من راكبي دراجات يسبقهم على كلا جانبَي العربة، والسبب في اتباع مركبتَين المركبة ذات المقصورة إلى داخل بالاس يارد.

في وقت الإشعار، وقاعة البرلمان تعجُّ بعدد من النواب الذين كانوا متناثرين هنا وهناك، وقف السير فيليب في مكانه ونبه إلى أن القراءة الثانية لمشروع قانون تسليم الأجانب (الجرائم السياسية)، ستُجرى يوم الثلاثاء من الأسبوع التالي، أو على وجه الدقة، بعد عشرة أيام.

في مساء ذلك اليوم التقى مانفريد جونزاليس في حدائقِ نورث تاور وعلَّق على روعة ساحة قصر كريستال بالاس الخيالية ليلًا.

كانت فرقةٌ موسيقية من الحرس تعزف افتتاحية أوبرا «تانهاوزر»، وتكلم الرجلان حول الموسيقى.

وبعد ذلك ...

سأل مانفريد: «ماذا عن تيري؟»

أجاب جونزاليس: «إنه مع بويكارت اليوم؛ يريه معالم المدينة.» وضحك الاثنان.

سأل جونزاليس: «وماذا عنك؟»

قال مانفريد: «أمضيتُ يومًا شيِّقًا؛ التقيتُ مفتش المباحث الساذج ذاك في جرين بارك، وسألني عن رأيي فينا!»

أبدى جونزاليس تعليقًا حول الحركة في سُلَّم صول الصغير، وأومأ مانفريد برأسه مصدقًا على قوله، متابعًا سماع الموسيقى.

سأله ليون بهدوء: «هل نحن مستعدون؟»

هزَّ مانفريد رأسه بالإيجاب مجدَّدًا وبنعومةٍ أخذ يصفر اللحن. توقَّف مع آخر ضربة للفرقة، وشارك في التصفيق لتحية الموسيقيين.

قال، وهو يُصفِّق: «لقد تحصَّلتُ على مكان. وينبغي أن نذهب معًا.»

«هل كل شيء هناك؟»

نظر مانفريد إلى رفيقه وعيناه تلمعان.

«كل شيء تقريبًا.»

انطلقَت الفرقة تعزف النشيد الوطني، وقام الرجلان واقفَين وخلعا قُبَّعتَيهما.

أخذ الحشد المحيط بمنصة الفرقة يتوارى عن الأنظار في الظلمة، واستدار مانفريد ورفيقه ليغادرا.

تلألأت آلاف المصابيح الصغيرة في الساحة، وكان ثَمَّةَ رائحةٌ غاز قوية في الجو.

قال جونزاليس بنبرة أقرب إلى التساؤل أكثر منها إلى اليقين: «لن نستخدم تلك الطريقة هذه المرة؟»

أجاب مانفريد مؤكدًا: «قطعًا لن نستخدم تلك الطريقة.»

الفصل الرابع

التحضيرات

عندما ظهر إعلان في صحيفة «نيوزبيبر بروبريتور» كان نصه:

للبيع: مُنشأة زنكوغراف قديمة التأسيس مع مصنعٍ جديد رائع ومخزونٍ كبير من المواد الكيميائية.

قال كل المشتغلين في مجال الطباعة والحفر إن هذه المنشأة المُعلَن عنها هي مؤسسة «إثيرنجتون». للمبتدئين في المجال، كانت ورشة الحفر الضوئي عبارة عن آلات حفر، ومناشيرَ كهربائية، ومبارِدِ رصاص، ومخارطَ مزعجة، ومصابيحَ قوسيةٍ متوهجة ضخمة.

أما للمُلمِّين بالمجال، فكانت ورشة الحفر الضوئي عبارةً عن مكانٍ يُعاد فيه إنتاج أعمالٍ فنية بواسطة التصوير على ألواح الزنك، ومن ثَمَّ تُستخدَم لأغراض الطباعة.

كان الخبراء في مجال الطباعة يعلمون أن مؤسسة «إثيرنجتون» من أسوأ المؤسسات في هذا المجال؛ فمع أن صورها الزنكوغرافية كانت أقل جودة وإتقانًا، إلا أنها كانت أغلى ثمنًا.

ظلت مؤسسة «إثيرنجتون» معروضة للبيع لمدة ثلاثة أشهر (بأمر من الحراس القضائيين)، ولكن من ناحيةٍ بسبب بعدُها عن شارع فليت (حيث كانت تقع في شارع كارنابي)، ومن ناحيةٍ أخرى بسبب الحال المتهالكة للآلات (وهو ما يدل على أنه حتى الحارس القضائي لم يكن لديه حِسٌّ أخلاقي في صيغة الإعلان)، لم يتقدم أيُّ مزايدين للشراء.

عَلِم مانفريد، الذي تقابل في شارع كاري مع الحارس القضائي، أن المؤسسة يمكن أن تُؤجَّر أو تُباع، وأن تسليمها في أيٍّ من الحالَين سيتم فورًا، وأنه يُوجد أعلى المبنى

مكان لإقامة المشرفين عليه، وأن كل المطلوب كوسيلة ضمانٍ هو استعلامٌ مصرفي من أحد البنوك.

قال الحارس القضائي أثناء اجتماعه بالدائنين ذات يومٍ بعد مقابلةِ مانفريد له: «يا له من شخصٍ مهووس واهم! يظن أنه سيجني ثروة من الحفر الضوئي لنسخ صور موريللو وبيعها بأسعارٍ مناسبة لمن يفتقرون إلى المهارة الفنية. إنه يقول لي إنه يؤسس شركةً صغيرة لمباشرة العمل، وإنه بمجرد تأسيسها سيعود لشراء المصنع بكامله.»

وبالفعل في اليوم نفسه ذهب كلٌّ من التاجر توماس براون، والسيد آرثر دبليو نايت، والفنان جيمس سيلكيرك، والوكيل المالي أندرو كوهين، والفنان جيمس لييتش، وسجَّلوا أنفسهم في شركات بورصة الأوراق المالية، وطلبوا أن يُشكِّلوا شركةَ توصيةٍ محدودة بغرض مباشرة أعمال الزنكوغراف، ولذلك الغرض تقاسموا فيما بينهم أسهم هذه الشركة كما هو مُدوَّن في عقد تأسيسها.

(ملاحظة جانبية؛ كان مانفريد فنَّانًا عظيمًا.)

وقبل خمسة أيام من عرض مشروع قانون تسليم الأجانب للقراءة أمام البرلمان، كانت المجموعة قد شغلَت مقرها الجديد استعدادًا لبدء العمل.

قال مانفريد: «منذ سنوات، عندما قدِمت إلى لندن لأول مرة، عرفتُ أن أسهل طريقةٍ يُخفي بها المرء هُويته هي أن يتنكر في هيئة عدو للشعب. إن كلمة «محدودة» تنطوي على قدرٍ هائل من الاحترام، ومظاهر الأُبَّهة التي تضفيها إدارة شركة تُبعد الشكوك، حتى لو كانت تسترعي الانتباه.»

طبع جونزاليس إعلانًا أنيقًا مفاده أن مؤسسة «إعادة إنتاج الفنون الجميلة» ستبدأ أعمالها في الأول من أكتوبر، ولافتةً أنيقة أخرى مكتوبًا عليها «لا تُوجد وظائف خالية»، وإعلانًا مقتضبًا آخر مفاده أنه لا يمكن إجراء أي مقابلات إلا بموعدٍ مسبق، وأن جميع المراسلات يجب أن تُوَجَّه إلى المدير.

كانت واجهة المؤسسة عادية، وكان لها قبوٌ عميق مزدحم بآلات المنشأة الصناعية المتداعية التي تركَها صاحب العمل السابق الذي كان قد صفَّى أعماله. وكان الطابق الأرضي فيما مضى مستعملًا للمكاتب، وكان يحتوي على أثاثٍ مهمل، وتناثرت فيه سجلاتٌ كئيبة.

كانت تُوجد أرففٌ ممتلئة بألواحٍ قديمة، وأرففٌ أخرى ممتلئة بفواتيرَ مُغبرة، وأرففٌ تحوي كل المخلَّفات التي تراكمَت في مكتب بواسطة محاسب كان يتقاضى راتبًا تأخَّر دفعه.

كان الطابق الأول عبارة عن ورشة، أما الثاني فكان مخزنًا، أما ثالث الطوابق وأهمها جميعًا فكان الطابق الذي يحوي الكاميرات الضخمة والمصابيح القوسية القوية التي كانت أدوات مساعِدة ضرورية جدًّا للعمل.

وفي مؤخرة هذا الطابق كانت تُوجد الغرف الثلاث الصغيرة التي كانت تخدم أغراض المشرف السابق.

في إحدى هذه الغرف، بعد يومَين من شَغْل المؤسسة، جلس رجال قادِس الأربعة.

كان الخريف قد أتى قبل أوانه هذا العام، وكان مطرٌ بارد غزير يسقط في الخارج، وأضفت النيران، التي كانت تتوهَّج في موقد المدفأة الجورجي الطراز، على الغرفة جوًّا من الراحة.

كانت هذه الغرفة وحدها قد أُخليت من المخلَّفات، وأُثِّثَت بأفضل أثاثٍ عرفَتْه المنشأة، وعلى طاولة الكتابة، الملطَّخة بالحبر، التي شغلت مركز الغرفة، كانت تُوجد بقايا غداءٍ فاخر نوعًا ما.

كان جونزاليس يقرأ كتابًا صغيرًا أحمر اللون، وقد تجدر الإشارة إلى أنه كان يرتدي نظارةً ذهبية الإطار، وبويكارت كان يرسم في ركن من الطاولة، وكان مانفريد يُدخِّن سيجارًا طويلًا رفيعًا ويدرس قائمةَ أسعارِ إحدى شركات تصنيع الكيماويات. أما تيري فهو الوحيد الذي كان جالسًا لا يفعل شيئًا ومتكومًا على نفسه أمام نيران المدفأة، يعبث في أصابعه، ويُحدِّق بشرود في لهب الموقد المتراقص.

كان الحديث يدور بينهم متقطعًا، مثلما يدور بين رجالٍ أذهانهم مشغولة بأفكارٍ مختلفة. استقطب تيري انتباه الثلاثة عندما تكلم مباشرةً في الموضوع. توقَّف عن تأمله في اللهب واستدار وتساءل فجأة:

«إلى متى ستُبقونني محبوسًا هنا؟»

رفع بويكارت نظره عن رسمه وعلق قائلًا:

«هذه هي المرة الثالثة التي يسأل فيها هذا السؤال اليوم.»

صاح تيري منفعلًا: «تكلم بالإسبانية! لقد سئمتُ من هذه اللغة الجديدة. لا أستطيع أن أفهمها، كما لا يمكنني أن أفهمكم.»

قال مانفريد، بلهجة الباتوا الأندلسية المتقطعة: «سوف تنتظر هنا حتى ينتهي الأمر. لقد قلنا لك ذلك.»

زمجر تيري وأشاح بوجهه نحو موقد المدفأة.

قال في تململُ: «لقد سئمت هذه الحياة. أريد أن أتمشى في الأنحاء دون حراسة؛ أريد أن أعود إلى جيريز، حيث كنت أعيش حُرًّا. إنني آسف على أنني تركتها.»

قال مانفريد بهدوء: «وأنا أيضًا، لكنني لست آسفًا للدرجة، وآمل لمصلحتك ألا يشتد أسفي.»

انفجر تيري، بعد برهة من الصمت، قائلًا: «من أنت؟ ومن أنتم؟ لماذا تريدون أن تقتلوا؟ هل أنتم أناركيون؟ ما المال الذي ستجنُونه من هذا؟ أريد أن أعرف.»

لم يُبدِ بويكارت ولا جونزاليس ولا مانفريد أيَّ امتعاضٍ من الطلب القاطع الآمر الذي صدَع به مُجنَّدُهم الجديد. اختلج وجه جونزاليس الحليق، المُدبَّب الذقن بإثارةٍ مبهجة، وضاقت عيناه الزرقاوان الباردتان.

تمتَم، وهو يراقب وجه الرجل الآخر: «ممتاز! ممتاز! أنفٌ مدبَّبة، وجبهةٌ صغيرة، و... (وانطلق يتحدث باللاتينية).»

ربما كان خبير الوجوه سيستطرد في وصف سينيكا للرجل الغاضب، لولا أن تيري انتفَض واقفًا ونظَر بحنق إلى الثلاثة.

تساءل ببطء: «من أنتم؟ كيف أعرف أنكم لن تحصلوا على أموالٍ مقابل هذا؟ أريد أن أعرف لماذا تُبقونني سجينًا؟ لماذا لا تتركونني أطلع على الصحف؟ لماذا لا تسمحون لي مطلقًا بأن أتمشَّى وحدي في الشارع، أو أتحدَّث إلى أحدٍ ما يعرف لغتي؟ أنتَ لستَ من إسبانيا، ولا أنت، ولا أنت. إن لغتكم الإسبانية، أجل، لكنني أعرف أنكم لستم من أبناء البلد. تُريدونني أن أقتل، لكنكم لن تقولوا لي كيف.»

رفع مانفريد يده ووضعها على كتف تيري.

قال، وعيناه تخلوان من أي تعبيرٍ سوى اللطف: «تمالك نفسك، يا سنيور، وتحلَّ بالصبر، أرجوك. أؤكد لكَ مجددًا أننا لا نقتل من أجل المال. هذان السيدان اللذان تراهما يملك كل واحدٍ منهما ثروة تتجاوز ستة ملايين بيزيتا، وأنا أغنى منهما؛ نحن نقتل وسوف نقتل لأن كل واحدٍ منا عانى من أعمال الظلم، التي عجز القانون عن مداواتها. إذا، إذا» تردَّد قليلًا، وهو لا يزال يُثَبِّت عينَيه برباطة جأشٍ في وجه الإسباني، ثم تابع قائلًا بلطف: «إذا ما قتلناكَ فسيكون هذا أول عمل نرتكبه من هذا النوع.»

كان تيري واقفًا، يزمجر والشحوب يعلو وجهه، وظهره إلى الحائط، وكذئبٍ محاصر في زاوية، أخذ ينتقل بنظره من واحد إلى الآخر بتشكُّكٍ شديد.

قال وهو يلهث: «أنا، أنا! تقتلونني أنا؟»

لم يتحرك أحدٌ من الرجال الثلاثة عدا مانفريد، الذي بسَط يده في اتجاهه.

أومأ برأسه وهو يقول: «أجل، أنت. إن قتلناك فستكون سابقةً لنا؛ لأننا لم نقتل من قبلُ إلا من أجل العدالة؛ وقتلُك سيكون عملًا غير عادل.»

نظر بويكارت إلى تيري في إشفاق.

قال بويكارت: «لذلك اخترناك؛ لأننا كنا نخشى دومًا التعرُّض للخيانة، وارتأينا، أنه من الأفضل أن تكون أنت من نختاره.»

تابع مانفريد بهدوء: «عليك أن تفهم أننا لن نمسَّ شعرةً من رأسكَ إذا كنت مخلصًا، وأنك ستنالُ مكافأةً ستتيح لك الحياة في بحبوحة. تَذَكَّر فتاتك التي في جيريز.»

عاوَد تيري الجلوس وهو يهزُّ كتفَيه في عدم اكتراث لكنَّ يدَيه كانتا ترتجفان وهو يشعل سيجارته بعود ثقاب.

«سنعطيك مزيدًا من الحرية. ستخرج كل يوم. بعد بضعة أيام سنعود إلى إسبانيا. لقد كانوا يُطلِقون عليك لقب «الرجل الصامت» في سجن جرانادا. ونحن نعتقد أنك ستظل هكذا.»

بعد هذا القول لم يفهم الإسباني حرفًا من الحديث الذي دار بين الثلاثة، لدرجة أنه ظن أنه كان باليونانية؛ إذ كان الرجال يتبادلون الحديث باللغة الإنجليزية.

قال جونزاليس: «إنه لا يُسبِّب لنا قدرًا كبيرًا من المتاعب. وبعد أن ألبسناه ملابسَ إنجليزية وبدا كالإنجليز، أصبح لا يلفت الانتباه. إنه لا يحب أن يحلق ذقنه كل يوم، ولكن هذا ضروري، ولحسن الحظ أنه ذو بشرةٍ فاتحة. لا أسمح له بأن يتكلم في الشارع، وهذا يضايقه نوعًا ما.»

حوَّل مانفريد مجرى الحديث إلى أمرٍ أكثر جدية.

«سأرسل إنذارَين آخرَين، ولا بد من إيصال أحدهما إلى عقر داره. إنه رجلٌ شجاع.»

تساءل بويكارت: «ماذا عن جارسيا؟»

ضحك مانفريد.

«لقد رأيتُه ليلة الأحد. إنه رجلٌ كهل لطيف متقد الحماس وخطيبٌ مفوه. جلستُ في مؤخرة قاعةٍ صغيرة وهو يخطب ببلاغةٍ فائقة بالفرنسية عن حقوق الإنسان. كان مثل جان جاك روسو وميرابو، وكان ذا نظرةٍ شاملة مثل برايت، وكان معظم الجمهور من شبان من الكوكني، الذين أتوا حتى يمكنهم أن يتفاخروا بأنهم قد وقفوا في معبد الأناركية.»

أخذ بويكارت ينقر على الطاولة بنفاد صبر.

«لماذا، يا جورج، تُقْحِم موضوعًا تافهًا وسط كل هذه الأمور؟»

فضحك مانفريد.

«أتذكر أندرسون؟ عندما كمَّمناه وأوثقناه في الكرسي، وأخبرناه بالسبب الذي كان لا بد أن يموت من أجله. عندما لم يكن ثَمَّةَ شيءٌ سوى عينَي المدان المتوسلتَين، وغرفة شبهِ معتمة ليس فيها إلا سراج يخفق ضوءُه بإضاءةٍ خافتة، وأنت وليون وكلاريس المسكينة تضعون الأقنعة وصامتون، وكنتُ أنا للتو قد حكمتُ عليه بالموت؛ تَذْكُرُ كيف تسلَّلَت إلى الغرفة رائحة بصلٍ مقلي من المطبخ بالأسفل.»

قال ليون: «أنا أيضًا أتذكَّر واقعة الاغتيال الملكي.»

أومأ بويكارت برأسه دلالة على الموافقة.

قال: «تقصد مشدَّات الخصر النسائية؟» فأومأ الاثنان برأسهما وضحكا.

قال مانفريد: «ستظل التفاهة دومًا تقتحم الأمور الجادة؛ كأن يكون مصير أمة بين يدَي جارسيا المسكين، مثار تندُّر لبائعاتِ متجر؛ مأساة ورائحة بصل؛ سيف طِعَان ذو حدَّين ومشدَّات خصرٍ مصنوعة من عظم الحوت؛ إنهما أمران لا يمكن الفصل بينهما.»

وطيلة هذا الحديث كان تيري يُدخِّن السجائر، وينظر إلى النيران ورأسه بين راحتَيه.

قال جونزاليس: «لنعُد إلى الحديث عن الشأن الذي بين أيدينا. أظن أنه لا يُوجد ما يمكن فعله أكثر مما فعلنا حتى. اليوم الموعود!»

«أجل، لا شيء.»

«وبعد ذلك؟»

«يوجد إنتاجنا للفنون الجميلة.»

ألحَّ بويكارت في السؤال: «وبعد ذلك؟»

«ثَمَّةَ مهمة في هولندا، تحديدًا هيرمانوس فان دير بيل، ولكنها سوف تكون مهمةً سهلة، ولن تكون ثَمَّةَ ضرورة لإنذاره.»

اكتسى وجه بويكارت بالجدية.

«أنا مسرور لأنك اقترحتَ فان دير بيل، كان ينبغي التعامل معه قبلًا؛ هوك أوف هولاند أم فليسينجين؟»

«إن كان لدينا وقت، فأقترح هوك أوف هولاند بالتأكيد.»

«وتيري؟»

قال جونزاليس ببساطة: «سأرى ما سأفعل بشأنه.» وأضاف ضاحكًا: «سنذهب إلى جيريز، حيث تعيش الفتاة.»

فَرغَ الشخصُ موضوعُ نقاشهم من سيجارته العاشرة واعتَدلَ في جلسته على مقعده وهو يدمدم بكلماتٍ غير مفهومة.

تابع ليون الحديث قائلًا: «نسيتُ أن أقول لكما إن اليوم، عندما كنا نتريَّض، كان تيري مهتمًّا جدًّا بالملصقات التي رآها في كل مكان، وبوجهٍ خاص كان لديه فضول لمعرفة السبب في أن أناسًا كثيرين كانوا يقرءُونها. اضطُررتُ إلى العثور على كذبةٍ أرتجلُها له على الفور، وأنا أكره الكذب!» كان جونزاليس صادقًا في كلامه تمامًا «اخترعتُ قصةً عن سباقٍ أو يانصيب أو شيءٍ من هذا القبيل، واقتنَع بما قلتُه له.»

كان تيري قد التقَط اسمَه بلفظته الإنجليزية، فنظر إليهم متسائلًا.

قال مانفريد، وهو ينهض: «سنتركك مع صديقنا لتُسَرِّي عنه. أما أنا وبويكارت فلدينا بعض التجارب التي سنُجريها.»

غادر الاثنان الغرفة، وعبرا الممر الضيق، وتوقَّفا أمام بابٍ صغير في نهايته. كان ثَمَّةَ بابٌ أكبر إلى اليمين، مغلق بقفل وقضيبٍ حديدي، ويؤدي إلى الاستوديو. أخرج مانفريد مفتاحًا صغيرًا من جيبه وفتح الباب، ودلَف إلى الغرفة، ثم أضاء النور الذي سطع باهتًا من مصباحٍ مغطًّى بالغبار. جرت بعض محاولات التخلُّص من الفوضى واستعادة النظام. كان رَفَّان قد أُخليا من الخردة، ووُضِع عليهما صفوفٌ من قواريرَ لامعةٍ صغيرة، كلٌّ منها يحمل رقمًا. وكانت طاولةٌ غير مصقولة قد دُفِعَت إلى الحائط أسفل الرَّفَين، وعلى نسيج الجوخ الأخضر، الذي غُطِّيَت به الطاولة، كانت تُوجد مجموعةٌ من المكاييل المُدرَّجة، وأنابيب الاختبار، والمكثِّفات، والموازين الحسَّاسة، وآلتان زجاجيَّتان غريبتا الشكل، تُشبِهان مُولِّدات الغاز.

سحب بويكارت كرسيًّا إلى الطاولة، ورفع بحذرٍ شديد قدحًا معدنيًّا كان موضوعًا في وعاء ماء. عَلَّق مانفريد، وهو ينظر خَلْفه، مبديًا ملاحظةً عن قوام السائل الذي ملأ نصف القدح، فأحنى بويكارت رأسه موافقًا على الملاحظة كما لو كان من قبيل المجاملة.

قال بارتياح: «نعم، إنه نجاحٌ تام، التركيبة مضبوطة تمامًا. قد نحتاج يومًا ما إلى استخدام هذا.»

أعاد وضع القدح في حمَّامه المائي، ثم مد يده أسفل الطاولة وأخرج من دلوٍ حفنةً من مسحوق الثلج، وبحرصٍ أحاط به الوعاء.

قال: «إنني أعتبر تلك المادة من المواد المتفجرة التي تُحدِث كميةٌ صغيرة منها تأثيرًا هائلًا.» ثم أنزل قارورةً صغيرةً من فوق الرف، ورفع سدادتها بعقف إصبعه الصغير، وصَبَّ قطراتٍ قليلة من السائل الضارب إلى البياض في القدح المعدني.

قال بويكارت: «ذلك يُبطِل مفعول العناصر.» وأطلق تنهيدة ارتياح، واستطرد: «أنا لست رجلًا عصبيًّا، لكن اللحظة الحالية هي أول لحظةِ ارتياحٍ شعَرتُ بها طيلة اليومَين الماضيَين.»

قال مانفريد، وهو يضع منديله على أنفه: «إن الرائحة المتصاعدة منه كريهة للغاية.»

كان خيطٌ رفيع من الدخان يتصاعد من القدح.

أجاب بويكارت، وهو يغمس عُصيَّةً زجاجية رفيعة في الخليط: «لا أكترث أبدًا بتلك الأشياء.» أخرج العُصيَّة الزجاجية، وأخذ يُراقب قطراتٍ بنية تتساقط من طرفها.

قال: «هذا حسنٌ.»

سأله مانفريد: «لم تَعُد المادة متفجرةً الآن؟»

«إنها عديمة الضرر كقدحٍ من الشيكولاتة.»

مسح بويكارت العُصيَّة بخِرْقةٍ، وأعاد القارورة، ثم التفَت إلى رفيقه.

سأله: «ماذا الآن؟»

لم يُجِب مانفريد، لكنه فتح خزانةً عتيقة الطراز كانت في ركن الغرفة. أخرج منها صندوقًا من خشبٍ مصقول. فتَح الصندوق وكشَف عن محتوياته.

قال: «إن كان تيري حِرفيًّا ماهرًا كما يزعُم، فها هو الطُّعم الذي سيستدرج السير فيليب رامون إلى حتفه.»

نظر بويكارت إلى محتويات الصندوق، وكان تعليقه الوحيد هو «عبقريٌّ جدًّا.» ثم قال: «هل يعرف تيري أيَّ شيء عن الضجة التي أحدثها هذا الأمر؟»

أغلَق مانفريد الغطاء وأعاد الصندوق قبل أن يُجيب.

تساءل قائلًا: «هل يعرف تيري أنه رابع «رجال العدالة الأربعة»؟» ثم أردف ببطء: «لا أظن ذلك، ومن الأفضل ألا يعرف؛ إن ألف جنيهٍ إسترليني تعادل تقريبًا ثلاثةً وثلاثين ألف بيزيتا، هذا إلى جانب العفو الشامل. وفتاته في مدينة جيريز!» وأضاف العبارة الأخيرة مُفكرًا برَويَّة وتأمُّل.

تفتَّق ذهنُ الصحفي سميث عن فكرةٍ عبقرية، وحملَها إلى رئيس التحرير ليعرضها عليه.

قال رئيس التحرير: «لا بأس.» وهو ما كان يعني أن الفكرة كانت جيدةً جدًّا حقًّا، وأردف: «لا بأس على الإطلاق.»

قال الصحفي مُمْتنًّا: «لقد خطر لي أن واحدًا أو اثنَين من الأربعة يمكن أن يكونا من الأجانب الذين لا يفقهون كلمةً إنجليزيةً واحدة.»

قال رئيس التحرير: «بالضبط، أشكرك على هذا الاقتراح. سأجعلهم يُنفِّذونه الليلة.»

يُفسِّر هذا الحوار ظهور صحيفة «ميجافون» في الصباح التالي وعلى صفحاتها إخطار الشرطة مترجمًا باللغات الفرنسية، والإيطالية، والألمانية ... والإسبانية.

الفصل الخامس

اعتداء على صحيفة «ميجافون»

بعد عودة رئيس تحرير صحيفة «ميجافون» من تناول العشاء، التقى رئيس الصحيفة على سلم الصحيفة. توقف رئيس الصحيفة، ذو الوجه الطفولي، عن التفكير في المشروع الجديد (كان مقر صحيفة «ميجافون» هو موطن المشروعات الجديدة) واستفسَر من رئيس التحرير عن مسألة رجال العدالة الأربعة.

أجاب رئيس التحرير: «إن الإثارة مستمرة. لا حديث للناس إلا عن المناقشة القادمة لمشروع قانون تسليم الأجانب، والحكومة تتخذ كل الاحتياطات لحماية رامون من الهجوم المحتمل.»

«ما الشعور العام السائد؟»

هز رئيس التحرير كتفَيه.

«لا أحد يُصدِّق حقًّا أن أي شيء سيحدُث رغم القنبلة.»

فكَّر رئيس الصحيفة لحظةً، ثم قال بسرعة:

«وما رأيك أنت؟»

ضحك رئيس التحرير.

«لا أظن أن التهديد سيُنَفَّذ؛ لقد أوقع الأربعة أنفسهم، لأول مرة، في مأزق. لو لم يُحذِّروا رامون لكان من المحتمل أن يفعلوا شيئًا، ولكن بعد الإنذار ...»

قال رئيس الصحيفة: «سوف نرى.» وانصرف في طريقه إلى بيته.

تساءل رئيس التحرير في نفسه، وهو يصعد درجات السلم، إلى متى سيستمر الأربعة في ملء صفحات صحيفته بالأخبار، ومع ذلك تمنَّى أن يُقْدِموا على محاولتهم، حتى لو مُنِيَت بالفشل، وهو ما اعتَبَره محتومًا.

كانت حجرته مُوصَدةً ومُظلِمة، وأخذ يتحسَّس جيبه بحثًا عن المفتاح، ووجده، وفتح الباب ودخل.

فكَّر في نفسه، وهو يمُد يده يضغط على مفتاح الإضاءة: «أتساءل عما إذا كان ...»

وما إن فعل حتى انبعَث وميضٌ يُعمي الأبصار، وانطلقَت للحظةٍ دفقةٌ سريعة من اللهب، ثم عادت الحجرة إلى الظلام.

أجفلَته المفاجأة، وتراجع إلى الممر ونادى يطلب من أي أحدٍ إنارة المكان.

صاح بصوتٍ هادر: «استدعوا الكهربائي؛ لقد احترق أحد هذه المُنصهرات الكهربية اللعينة!»

كشف مصباحٌ يدوي عن امتلاء الحجرة بدخانٍ ذي رائحةٍ نفَّاذة، واكتشَف الكهربائي أن كل المصابيح انتُزِعَت من تجاويفها ووُضِعَت على الطاولة.

من أحد دعامات السقف تدلَّى سلكٌ رفيع متموج وفي نهايته صندوقٌ صغير أسود، وكان هو مصدر تلك الأدخنة الكثيفة.

أمر رئيس التحرير من حوله قائلًا: «افتحوا النوافذ.» وأحضر أحدهم دلوًا مملوءًا بالماء، وبحرصٍ أُسْقِط فيه الصندوق الصغير.

ثم كان رئيس التحرير هو من اكتشَف وجود الخطاب؛ خطابٍ رمادي مُخضر موضوع على مكتبه. التقطه، وأخذ يُقَلِّبه، ثم فتحه، ولاحظ أن الصمغ الذي كان الظرف مغلقًا به كان لا يزال رطبًا.

كان نص الرسالة:

السيد المحترم

عندما فتَحتَ مفتاح إنارة حجرتك هذا المساء ربما تكون قد تخيَّلتَ للحظةٍ أنكَ كنتَ ضحية أحد تلك «الاعتداءات» التي أنت مولعٌ بالإشارة إليها. إننا مدينون لك باعتذارٍ عن أي إزعاجٍ قد نكون تسبَّبْنا فيه لك. لقد كان سبب الارتباك الذي أصابك هو إزالة مصباحك واستبدال صمامٍ متصل بعُبوةٍ صغيرة من مسحوق الماغنسيوم به. إننا ندعوك إلى أن تُصدِّق أنه كان يمكننا بنفس البساطة أن نُوصل عُبوةً من النيتروجلسرين، وكنا بذلك سنجعلك تُنهي حياتك بنفسك. لقد أعددنا هذا ليكون دليلًا على نيتنا الأكيدة في تنفيذ وعدنا فيما يخص مشروع قانون تسليم الأجانب. لا تُوجد قوةٌ على وجه الأرض يمكنها أن تُنقذ السير فيليب رامون من الهلاك، ونطلُب منك، بصفتك القوة الموجِّهة لوسيلةٍ إعلامية

عظيمة، أن تضغط بكل ما أوتيت من نفوذ وتأثير في سبيل إحقاق العدالة، وأن تدعُوَ حكومة بلدك أن تسحب مشروع القانون غير العادل، وتُنقِذ حياة الكثير من الأشخاص المسالمين الذين وجَدوا الملاذ في بلدك، وأيضًا حياة وزير التاج الذي لا نرى له جريرة إلا أنه قد أخذَتْه العِزَّة بالإثم.

توقيع
رجال العدالة الأربعة

أطلق رئيس التحرير تنهيدةَ ارتياحٍ وذهول في الوقت نفسه، وهو يمسح العرق عن جبينه وينظر إلى الصندوق المُشبع بالماء وهو يطفو في سكونٍ على سطح الماء في الدلو.

تساءل الكهربائي بجرأة: «أثَمَّةَ خطْبٌ، يا سيدي؟»

أجاب بحدَّة: «لا شيء. انتَهِ من عملِك، وأَعِد تركيب هذه المصابيح ثم انصرِفْ.»

نظر الكهربائي، بفضول وعدم رضا، إلى الصندوق الطافي والسلك المقطوع.

قال: «يا له من شيءٍ عجيب الشكل، يا سيدي. إن كنتَ تُريد رأيي ...»

قاطَعَه الصحفي الكبير قائلًا: «لا أريد منك أي شيء؛ انتَهِ من عملك.»

قال الفني معتذرًا: «معذرةً، بالتأكيد.»

بعد نصف ساعة كان رئيس تحرير صحيفة «ميجافون» يُناقش الموقف مع ويلبي. ابتسم ويلبي، الذي يُعتَبر أعظم مُحررٍ للشئون الخارجية في لندن، ابتسامةً ودية ومَطَّ شدقَيْه تعبيرًا عن ذهوله.

قال بابتهاج: «دائمًا ما كنتُ أعتقد أن هؤلاء الرجال جادُّون فيما يفعلون، وعلاوةً على ذلك، أشعر بيقينٍ تام أنهم سيُنفِّذون وعدهم. عندما كنتُ في جِنوة» كان ويلبي يستقي معلوماته من مصادرها مباشرةً «عندما كنتُ في جِنوة — أم كانت صوفيا؟ — التقيتُ رجلًا أخبرني عن واقعة اغتيال تريلوفيتش. كان أحد الرجال الذين اغتالوا ملك صربيا، كما تذكُر. حسنًا، في إحدى الليالي غادَر مسكنه ليرتاد أحد المسارح، وفي الليلة نفسها عُثِر عليه قتيلًا في ميدانٍ عام وقد أُغْمِد سيف في قلبه. كان ثَمَّةَ أمران عجيبان في المسألة.» وراح محرر الشئون الخارجية يُحْصيهِما على أصابعه «الأمر الأول، أن الجنرال كان مبارزًا شهيرًا، وكان ثَمَّةَ أدلةٌ كثيرة على أنه لم يُقْتَل غدرًا بدمٍ بارد، وإنما قُتِل في مبارزة. الأمر الثاني أنه كان يرتدي مشدًّا للصدر، مثلما يفعل كثيرٌ من هؤلاء الضباط

الألمان، وأن أحد مهاجميه قد اكتشَف هذه الحقيقة، ربما بطعنةِ سيف، وجعله يخلعه؛ على أي حال عندما عُثِر عليه وُجِدَ هذا المشَد بجوار جثته.»

تساءل رئيس التحرير: «هل كان معروفًا في ذلك الحين أن هذا كان من تدبير الأربعة؟»

هَزَّ ويلبي رأسه نفيًا.

قال بامتعاض: «حتى أنا لم أكن قد سمعتُ بهم من قبلُ.» ثم سأله: «ماذا فعلتَ بشأن محاولة ترهيبك؟»

«لقد استجوبتُ البوابين والسُّعاة، وكلَّ مَن كانوا يعملون في ذلك الوقت، لكنَّني لم أجد تفسيرًا لمجيء وذَهاب صديقنا الغامض؛ فلا أظن أنهم كانوا أكثر من واحد. إن هذا الأمر عجيب حقًّا. أتعرف، يا ويلبي، إن الأمر يُثير في نفسي شعورًا غريبًا جدًّا؛ فالصمغ على الظرف كان لا يزال رطبًا، ولا بد أن الرسالة قد كُتِبَت في داخل المبنى ووُضِعَت في الظرف قبل ثوانٍ من دخولي الحجرة.»

«هل كانت النوافذ مفتوحة؟»

«لا؛ كانت النوافذ الثلاث كلها مُحكَمة الغلق، ومن المستحيل أن يكون أحدٌ قد دخل الحجرة عن طريقها.»

وأيَّد هذا الرأيَ مفتشُ المباحث الذي جاء لتلقِّي تقرير عن الملابسات.

إذ قال مستنتجًا: «لا بد أن يكون الرجل الذي كتب هذه الرسالة قد غادر حجرتك قبل وصولك بدقيقة.» واستلم الخطاب.

ولما كان مفتشًا شابًّا ومُتحمِّسًا، فقد فَتَّش الحجرة تفتيشًا دقيقًا للغاية قبل أن ينتهي من تحرياته؛ إذ أخذ يُقلِّب السجاجيد، ويدقُّ على الحوائط، ويُفتِّش في الدواليب، ويأخذ قياساتٍ مجهدةً وغير ضرورية بمسطرة طولها قدم واحدة.

قال، مفسرًا لرئيس التحرير الذي وجد ما يفعله مضحكًا: «يسخر الكثير من رفاقي من الروايات البوليسية، لكني قرأت تقريبًا كل ما كتبه جابوريو وكونان دويل، وأنا مقتنعٌ بضرورة ملاحظة التفاصيل الصغيرة.» وتساءل بلهفة: «ألم يترك ذلك المعتدي المجهول وراءه رماد سجائر أو شيئًا من هذا القبيل؟»

قال رئيس التحرير بجدية: «لا أعتقد ذلك.»

قال المفتش: «خسارة!» وبعد أن صَرَّ «الآلة الشيطانية» في حزمة مع ملحقاتها، غادر منصرفًا.

فيما بعدُ أخبر رئيس التحرير ويلبي أن تلميذ شيرلوك هولمز أمضى نصف ساعة يفحص أرضية الحجرة بعدسةٍ مُكَبِّرة.

«لقد عثر على جنيهٍ ذهبي كنتُ قد فقدتُه منذ أسابيع؛ حقًّا مصائب قوم عند قومٍ فوائد!»

طيلة ذلك المساء لم يعرف أحدٌ سوى ويلبى ورئيس التحرير بما جرى في حجرة الأخير. سرت شائعة في قسم المُحرِّرين المساعدين أن حادثًا صغيرًا قد وقع في حجرة رئيس التحرير.

قال الرجل الذي كان يتولى قوائم الشحن: «لقد أحرق رئيس التحرير قابسًا في حجرته وأُصيب برعبٍ شديد.»

قال خبير الطقس، وهو يرفع عينَيه عن الخريطة التي أمامه: «يا إلهي! أتعرف أن شيئًا من هذا القبيل حدث لي؛ فالليلة الماضية ...»

كان رئيس التحرير قد وجَّه بضع عباراتٍ حازمة إلى المفتش قُبيل مغادرته.

قال رئيس التحرير: «أنا وأنت فقط مَن يعلم بهذه الواقعة؛ لذا إذا تسرب الخبر فسأعرف أن مصدره هو سكوتلاند يارد.»

أجاب مفتش المباحث: «كن متأكدًا أنْ لا شيء سيتسرب عن طريقنا؛ فنحن بالفعل في موقفٍ عسير جدًّا ولن نرغب في أن نزيد الطين بِلَّة.»

قال رئيس التحرير: «هذا جيد.» وبدت العبارة السابقة بمنزلةِ تهديد.

وهكذا احتفَظ ويلبي ورئيس التحرير بالأمر سرًّا حتى نصف ساعة من إرسال الصحيفة للمطبعة.

قد يبدو هذا للرجل العادي ظرفًا استثنائيًّا، ولكن الخبرة أثبتت لمعظم من يديرون الصحف أن الأخبار تتسرَّب بطريقةٍ غامضة قبل ظهورها مطبوعةً في الصحيفة.

عُرف عن مُنضِّدي الحُروفِ المَطْبعيَّةِ الأشرار — حتى مُنضِّدو الحروف المطبعية يمكن أن يكونوا أشرارًا — أنهم يُفسِدون نُسخًا تحوي أخبارًا مهمة وحصرية، ويُلقون بها من نافذةٍ مناسبة ليتلقَّفها رجلٌ صبور واقف في الشارع بالأسفل ويُسرِع بها على الفور إلى مكتب صحيفةٍ منافِسة ويبيعها مقابلَ أكثر من وزنها ذهبًا؛ تلك الحالات معروفة في أوساط الصحافة.

ولكن في الساعة الحادية عشرة والنصف بدأَت الهمهَمات تنتشر في مبنى صحيفة «ميجافون» كأزيزٍ في خلية نحل؛ لأنه عندئذٍ فقط عرف المحررون المساعدون لأول مرة بخبر «الاعتداء» على الصحيفة.

كانت قصةً عظيمة؛ لكنها كانت مجرد سبقٍ صحفي جديد لصحيفة «ميجافون»، فامتلأت الصفحة الأولى حتى منتصفها من جديد بعناوينَ عن «رجال العدالة الأربعة»: «اعتداء على مكتب صحيفة «ميجافون»» – «براعة شيطانية» – «رسالة تهديد جديدة» – «رجال العدالة الأربعة سينفذون وعدهم» – «وثيقة مذهلة» – «هل ستنقذ الشرطة السير فيليب رامون؟»

قال رئيس التحرير، راضيًا عن نفسه، بينما كان يقرأ تجارب الطباعة: «قصةٌ جيدة جدًّا.»

كان يستعد للمغادرة، وأخذ يتبادل الحديث مع ويلبي عند الباب.

قال ويلبي الحصيف: «لا بأس بها. ما أظنه هو أن ... أهلًا!»

كانت الكلمة الأخيرة موجهةً إلى أحد السعاة الذي ظهر وبصحبته رجلٌ غريب.

قال الساعي: «هذا السيد يرغب في التحدث إلى أحد المسئولين هنا، يا سيدي، وكان يبدو منفعلًا؛ لذا جئت به؛ إنه أجنبي، ولا أستطيع أن أفهم ما يقوله، لذا جئت به إليك.» كانت الجملة الأخيرة موجَّهة إلى ويلبي.

سأل رئيس التحرير الأجنبي بلغةٍ فرنسية: «ماذا تريد؟»

هَزَّ الرجل رأسه، وقال بضع كلماتٍ بلغةٍ غريبة.

فقال ويلبي: «آه! إسباني. فيمَ ترغب؟» قالها بالإسبانية.

أخرج الرجل نسخةً متسخة من صحيفة «ميجافون»، وتساءل: «هل هذا هو مقر تلك الصحيفة؟»

«أجل.»

«أيمكنني التحدُّث إلى رئيس التحرير؟»

بدا الارتياب على رئيس التحرير.

قال: «أنا رئيس التحرير.»

نظر الرجل خلفه، ثم مال إلى الأمام.

وقال بتردُّد: «أنا أحد رجال العدالة الأربعة.» تقدَّم ويلبي خطوةً نحوه وأخذ يتفحصه بتدقيق.

سأله فجأة: «ما اسمك؟»

أجاب الرجل: «ميجيل تيري من مدينة جيريز.»

كانت الساعة العاشرة والنصف عندما مرت عربة الأجرة، التي تُقِلُّ بويكارت ومانفريد في طريق عودتهما من حفلٍ موسيقي، عبر ميدان هانوفر ومنه إلى شارع أكسفورد.

أخذ مانفريد يشرح لبويكارت: «اسأل عن رئيس التحرير، وسيصعدون بك إلى المكاتب، وأخبر أحدهم بالشأن الذي جئتَ من أجله؛ فسيقول لك إنه آسفٌ جدًّا، لكنه لن يستطيع مساعدتك، وسيكون مهذبًا جدًّا، لكن ليس لدرجة أن يُرافِقكَ إلى خارجِ مقَر الصحيفة؛ لذا، تجوَّل في المكان كأنك تبحث عن طريق الخروج، ثم تَوجَّه إلى مكتب رئيس التحرير، وإذ تعرف أنه بالخارج، تتسلَّل إلى الحجرة، وتقوم بترتيباتك، وتخرج منها، وتُغلِق الباب خلفكَ إذا لم يكن ثَمَّةَ أحد في الجوار، أما إذا شاهدَك أحدهم، فتظاهَرْ بأنك تُوجِّه بضع كلماتِ وداعٍ لشخصٍ ما في الحجرة، وأغلق الباب، وهكذا تكون قد انتهيت!»

قضم بويكارت طرف سيجاره.

قال مانفريد في هدوء: «استعمل في لصق الظرف صمغًا لا يجف إلا بعد ساعة وبذلك تزيد من الغموض.» وكان بويكارت مستمتعًا بما يقول.

«سيكون للظرف الذي لا يزال صمغه رطبًا جاذبيةٌ لا تُقَاوَم لمفتشي المباحث الإنجليز.»

كانت عربة الأجرة، التي سارت مسرعةً عَبْر شارع أكسفورد، تنحرف منه إلى طريق إدجوير، عندما رفع مانفريد يده وفتح غطاء السقف.

صاح في السائق قائلًا: «سنترجَّل هنا.» فأوقف السائق العربة بجوار الرصيف.

قال لمانفريد وهو يدفع له الأجرة: «ظننتُك قلت بمبريدج جاردنز، ألم يكن ذلك ما قلتَه؟»

قال مانفريد: «هذا ما قلتُه فعلًا. طابت ليلتك.»

وقفا على حافة الرصيف يتبادلان أطراف الحديث إلى أن اختفت عربة الأجرة عن الأنظار، ثم استدارا عائِدَين إلى مَعْلَم ماربل آرش (قوس الرخام)، وعَبَراه إلى شارع بارك لين، وسارا في ذلك الشارع الذي ترتاده النخبة الثرية ومنه إلى ميدان بيكاديللي. بالقرب من السيرك وجدا مطعمًا به بارٌ طويل وكثير من المقصورات الصغيرة التي جلس فيها الرجال حول طاولاتٍ رخامية، يشربون، ويُدخِّنون، ويتسامرون. في إحدى هذه المقصورات، جلس جونزاليس، يُدخِّن سيجارةً طويلةً ويضع على وجهه الحليق، الذي يجيد التحكُّم في تعبيراته، قناع الرجل ذي النظرة التأمُّلية.

لم يُظهر أيٌّ من الرجلين أيَّ لمحةٍ من المفاجأة للقائه، إلا أن الحقيقة أن قلب مانفريد كاد أن يتوقَّف من الخوف، وتورَّدَت وجنتا بويكارت الشاحبتان.

اتخذا جلستَهما، وأتى نادل وقدَّم لهما طلباتهما، وبعدما انصرف تساءل مانفريد بصوتٍ خفيض: «أين تيري؟»

هَزَّ ليون كتفَيه هزةً خفيفة.

وأجاب بهدوء: «لقد فَرَّ تيري.»

خيَّم الصمت على الرجال لبرهة، ثم استطرد ليون:

«هذا الصباح، قبل أن تغادر، هل أعطيتَه حزمة من الصحف؟»

أومأ مانفريد برأسه إيجابًا.

قال: «كانت صحفًا إنجليزية. وتيري لا يعرف حتى كلمةً واحدة من الإنجليزية. كانت تحتوي على صور؛ فأعطيتها له ليتسلَّى بمشاهدتها.»

«هل أعطيته، من بينها، صحيفة «ميجافون»؟»

هنا تذكر مانفريد، وقال: «أجل. ها!»

«كان في الصحيفة عرضٌ بمكافأة وعفو عام، مكتوبًا باللغة الإسبانية.»

شردَت نظرات مانفريد وأخذ يُحدِّق في الفراغ.

قال ببطء: «أذكر ذلك. لقد قرأتُه لاحقًا.»

عَلَّق بويكارت، مُثنِيًا على الفكرة: «فكرةٌ عبقرية من الصحيفة.»

«لقد لاحظتُ أنه كان مضطربًا نوعًا ما، لكنني أرجعتُ ذلك إلى أننا كنا قد أخبرناه الليلة الماضية عن الطريقة التي ننوي أن ننتهجها للتخلُّص من رامون ودوره فيها.»

غَيَّر ليون الموضوع ليسمح للنادل بأن يُقدِّم المرطبات التي كانوا قد طلبوها.

تابع حديثَه بطريقةٍ مبطَّنة دون أن يغير الموضوع: «من غير المعقول ألا نرسل حصانًا، راهنًّا عليه بالكثير جدًّا من المال، إلى إنجلترا قبل شهر من السباق على الأقل.»

أضاف مانفريد بجدية: «إن فكرة أن يؤدي عبورٌ سيئ للقناة الإنجليزية إلى خدش الحصان المرجَّح فوزُه في سباقٍ كبير هي أمرٌ لم يَسمَع به أحدٌ من قبل.»

عندئذ تركهم النادل وانصرف.

فتابع ليون حديثه قائلًا: «خرجنا نتمشى اليوم عصرًا، وكنا نمر بشارع ريجينت، وأخذ يتوقف كل بضع ثوانٍ لينظر في واجهات المتاجر، وفجأة، بينما كنا نُحمِلِق في واجهة محل للتصوير، إذا به يختفي. كان يُوجد مئات الناس في الشارع، لكن لم يكن تيري من بينهم، وظلَلتُ أبحث عنه منذ ذلك الحين.»

ارتشف ليون رشفةً من شرابه ونظر إلى ساعته.

أما الرجلان الآخران فلم يفعلا أو يقولا أي شيء.

ربما كان بمقدور المراقب المدقق أن يلاحظ أن مانفريد وبويكارت أخذا يُمرِّران يدهما فوق الزر العلوي لمعطفَيهما.

ابتسم جونزاليس، وقال: «لعل الأمر ليس بهذا السوء.»

قطع مانفريد الصمت الذي غرق فيه جونزاليس وبويكارت.

عقَّب قائلًا: «أنا وحدي من أتحمل اللوم كله.» لكن بويكارت أسكته بإشارة من يده.

قال وهو يضحك ضحكةً قصيرة: «إن كان ثَمَّةَ من يستحق اللوم، فهو أنا وحدي. لا يا جورج، لقد فات أوان الحديث عمَّن الملوم في الأمر. لقد استهنَّا بمكر المسيو تيري، وبجرأة الصحف الإنجليزية و... و...»

أتم ليون جملته: «وفتاته التي في جيريز.»

مرَّت خمس دقائق في صمت، أخذت فيها الأفكار تتسارع في ذهن كلٍّ من الرجال الثلاثة.

أخيرًا قال ليون: «إن معي سيارةً ليست بعيدة عن هنا. كنتَ قد قلتَ لي إنك ستكون في هذا المكان في الساعة الحادية عشرة، ولدينا القارب ذو المحرك في مرفأ بورنهام أون كراوتش؛ يمكننا أن نكون في فرنسا مع الشروق.»

نظر مانفريد إليه، وسأله: «وما رأيك أنت؟»

قال ليون: «أرى أن نبقى ونُنهِي مهمتنا.»

قال بويكارت بهدوء ولكن بتصميم: «وأنا كذلك.»

نادى مانفريد على النادل.

«ألديكَ آخرُ طبعةٍ من الصحف المسائية؟»

ظنَّ النادل أن بمقدوره أن يحصل عليها، وعاد ومعه جريدتان.

تصفَّح مانفريد الصفحات بعناية، ثم ألقى بهما جانبًا.

قال: «لا يُوجد شيء في هاتَين الجريدتَين. إن كان تيري قد ذهب إلى الشرطة فيجب أن نختبئ ونستخدم طريقةً أخرى لتنفيذ ما اتفقنا عليه، أو يمكننا أن نضرب ضربتنا الآن؛ فقد أخبرنا تيري بكل ما نُريد معرفتَه على أي حال، ولكن ...»

أنهى بويكارت جملته بنبرةٍ أنهت بإيجاز هذا الاحتمال: «لكن ذلك لن يكون من الإنصاف لرامون. ما زال لديه يومان، ولا يزال يتعيَّن علينا أن نرسل له إنذارًا ثانيًا وأخيرًا.»

«إذن يجب أن نعثُر على تيري.»

كان قائل العبارة الأخيرة هو مانفريد، الذي نهض واقفًا، وتبعه بويكارت وجونزاليس.

«إن لم يكن تيري قد ذهب إلى الشرطة، فإلى أين سيذهب؟»

كانت نبرةُ صوتِ ليون تحمل في طياتها الإجابة.

أجاب مانفريد: «إلى مقر الصحيفة التي نشرت الإعلان باللغة الإسبانية.» وغريزيًّا عرف الرجال الثلاثة أن هذا هو الحل الصحيح.

قال مانفريد: «إن سيارتك ستكون مفيدة.» وغادر الثلاثة البار.

في حجرة رئيس التحرير، واجه تيري الصحفيَّين الاثنَين.

كرَّر ويلبي قوله: «تيري؟ لا أعرف ذلك الاسم. من أين أنت؟ وما عنوانك؟»

«أنا من مدينة جيريز في الأندلس، من مزرعة خمور سينور.»

قاطعه ويلبي قائلًا: «ليس هذا ما أقصده؛ أقصد من أين جئت الآن؟ من أي منطقة في لندن؟»

رفع تيري يديه بيأس.

«كيف لي أن أعرف؟ يُوجد منازلُ وشوارعُ وناس والمنطقة في لندن، وكنتُ سأقتل رجلًا، وزيرًا؛ لأنه وضع قانونًا شريرًا. لم يخبروني عن ماهية ...»

سأله رئيس التحرير بتلهُّف: «من هم؟»

«الثلاثة الآخرون.»

«ولكن ما أسماؤهم؟»

نظر تيري إلى مستجوبه بتشكُّك.

قال بتجهم: «ثَمَّةَ مكافأة وعفو شامل. أريد هذَين الأمرين قبل أن أخبرك.»

توجه رئيس التحرير إلى مكتبه.

«إذا كنتَ واحدًا من «الأربعة» فستحصل على مكافأتك. ستحصل على بعضٍ منها الآن.» وضغط على زر فحضر أحد السعاة إلى الباب.

«اذهب إلى غرفة تنضيد الحروف وقل لكبيرِ عمالِ الطباعة ألا يسمح لأحد بالانصراف إلا بأمري.»

بالأسفل، في القبو، كانت الماكينات تَهدرُ وهي تقذف بأول نُسخٍ من الصحيفة الصباحية.

التفَت رئيس التحرير إلى تيري، الذي كان قد وقف، وأخذ يُبدِّل رجلَيه على الأرض بينما كان رئيس التحرير يُوجِّه إليه الأمر: «والآن، أخبرني بكل ما تعرفه.»

لم يجب تيري؛ وأخذ يحملق في الأرض.

تمتم بعناد: «ثَمَّةَ مكافأة وعفو.»

صاح ويلبي: «عَجِّل! ستحصل على المكافأة وكذلك العفو. أخبرنا من هم رجال العدالة الأربعة؟ من هم الثلاثة الآخرون؟ أين يمكن أن نعثر عليهم؟»

قال صوتٌ واضحٌ من خلفه: «هنا.» وتبيَّن أن صاحب الصوت رجلٌ غريب دخل الحجرة وأغلق الباب وراءه، ووقف مواجهًا الرجال الثلاثة؛ غريب في ملابس سهرة، مُقَنَّعًا من جبينه إلى ذقنه.

وكان ممسكًا في يده المدلَّاة إلى جانبه بمسدَّسٍ ذي ساقيةٍ دوارة.

كرَّر الغريب بهدوء: «أنا أحدهم، ويُوجد اثنان آخران ينتظران خارج المبنى.»

سأله رئيس التحرير: «كيف دخلتَ إلى هنا؟ ماذا تريد؟» ومد يده إلى دُرجٍ مفتوح في مكتبه.

قال الغريب: «أبعد يدك.» وبحركة سريعة، صوَّب إليه ماسورة المسدَّس الدوار الرفيعة «أما عن كيف دخلتُ إلى هنا فسيُفسِّر لك بوابك ذلك، عندما يستعيد وعيه. وأما لماذا أنا هنا؛ فلأنني أرغب في إنقاذ حياتك، وهي رغبةٌ معقولة. إذا تكلم تيري فقد أُصبِح في عداد الموتى. أنا على وشك منعه من الكلام. لا تُوجد خصومةٌ بيني وبينكما أيها السيدان.» وأضاف ببساطة: «ولكن إن اعترضتُما سبيلي فسأقتلُكما.» كان طيلة الوقت يتكلم باللغة الإنجليزية، وتراجع تيري، بعينَين متسعتَين وفتحتَي أنف منتفختَين، منكمشًا إلى الحائط، يلتقط أنفاسًا متسارعة.

قال الرجل المُقَنَّع، ملتفتًا إلى الواشي المذعور، ومتكلمًا بالإسبانية: «أما أنت فقد كنت ستخونُ رفاقك، وتُحبط هدفًا عظيمًا؛ لذلك فقد حَقَّ عليك الموت.»

رفَع مسدسه الدوار إلى مستوى صدر تيري، وخرَّ تيري على ركبتَيه، يتمتم بصلاةٍ غير واضحة.

صاح رئيس التحرير، مندفعًا إلى الأمام: «بحق الرب، لا!»

فأدار الرجل فُوَّهة المسدَّس ناحيته.

قال الرجل المجهول بصوتٍ يكاد يكون كالهمس: «أيها السيد، أرجوك، بحق الرب لا تُجبرني على قتلك.»

صاح رئيس التحرير في أَوْج الغضب، وهو يتحرك ناحيته: «لا ترتكب جريمة قتل بدمٍ باردٍ.» لكن ويلبي أمسك به وأوقفه، وقال همسًا: «ما نفع ذلك؟ إنه مُصمِّم على أن يفعل، وليس بوسعنا أن نفعل أي شيء.»

قال الغريب: «بوُسعِكما أن تفعلا شيئًا.» وأخفَض مسدسه إلى جانبه.

قبل أن يتمكن رئيس التحرير من الرد، سمعوا صوت طرقٍ على الباب.

قال الغريب، مصوبًا مسدسه إلى تيري، الذي كان ينتحب، مُتكوِّمًا على نفسه بجوار الحائط: «قل إنك مشغول.»

صاح رئيس التحرير: «انصرف الآن. أنا مشغول.»

قال الساعي من وراء الباب: «عمال الطباعة ينتظرون.»

تساءل رئيس التحرير، بينما كان صوتُ خطواتِ الصبي يبتعد: «والآن، ماذا يمكننا أن نفعل؟»

«يمكنكما أن تنقذا حياة هذا الرجل.»

«كيف؟»

«بأن تتعهَّد بشرفك بأنك ستسمح لنا بالمغادرة، ولن تُطلِق تحذيرًا أو تغادر هذه الحجرة لمدة ربع ساعة.»

تردَّد رئيس التحرير قبل أن يُجيب.

«وأنَّى لي أن أعرف أنك لن ترتكب جريمة القتل، التي تعتزم ارتكابها، بمجرد مغادرتك؟»

ضحك الغريب من وراء قناعه.

«وأنَّى لي أن أعرف أنك لن تطلق تحذيرًا بمجرد مغادرتي للحجرة؟»

قال رئيس التحرير بصلابة: «لأنني سأكون قد تعهَّدتُ لك بشرفي، يا سيدي.»

أجابه الغريب بهدوء: «وكذلك أنا؛ ولم أخلف عهدًا قطعتُه أبدًا.»

في عقل رئيس التحرير كان يدور صراعٌ محتدم؛ فها هو بين يديه أعظم خبر في القرن، ولو أن المقنَّع كان قد تأخَّر دقيقة، لكان استخلص من تيري سر «الأربعة».

وحتى الآن، يمكن لحركةٍ جريئة أن تُنقذ كل شيء؛ وعمال المطبعة في الانتظار. لكن اليد التي كانت ممسكةً بالمسدس كانت يد رجلٍ ثابت العزم، وخضع رئيس التحرير له.

قال: «أوافق، ولكن مع احتجاج، وأُحذِّرك أن مصيركم المحتومَ هو القبضُ عليكم وعقابكم.»

قال الرجل المقنَّع وهو ينحني انحناءةً خفيفة: «يؤسفني أنني لا أستطيع أن أتفق معك؛ فلا شيء محتوم إلا الموت.» ثم قال بالإسبانية: «تعالَ يا تيري. أتعهَّد لك بشرفي بصفتي فارسًا أنني لن أُوذيَك.»

تردَّد تيري، ثم انسل إلى الأمام مَحنيَّ الرأس وعيناه مُصوَّبتان إلى الأرض.

واربَ الرجل المقنَّع الباب، وأنصت، وفي هذه اللحظة أتى رئيسَ التحرير أعظمُ إلهام في حياته.

قال فجأة، وقد تغلَّب لديه الحس الصحفي: «اسمع، عندما تعودان إلى الديار أيمكنكم أن تكتبوا لنا مقالًا عن أنفسكم؟ لستم بحاجة إلى إعطائنا أي تفصيلاتٍ محرجة؛ يمكنكم أن تكتبوا عن تطلعاتكم، وأهدافكم، والمُبرِّرات التي جعلتكم تسلكون هذا الطريق.»

قال الرجل المقنع، بلمحة إعجابٍ في صوته: «سيدي، ألَح فيك حِسَّ فنَّان. سيُسَلَّم إليك المقال غدًا.» وبعد أن فُتِح البابُ مضى الرجلانِ عَبْر الممَر المُظلِم.

الفصل السادس

الأدلة

في اليوم التالي أطلَّت الصحفُ الحائطية الحمراء، وانطلَق بائعو الصحف بصوتهِم الأجَش، والأغلبية الساحقة من عناوين الصحف، وعمودٌ صحفي تلو آخر، كلٌّ ينبئ العالم بأن «رجال العدالة الأربعة» أفلَتوا من الإمساك بهم بعد أن كانوا على وشك أن يُقبَض عليهم. انحنَى الرجال الجالسون في القطار إلى الأمام، وصحفُهم على رُكَبِهم، وهم يشرحون ماذا كانوا سيفعلون لو أنهم كانوا مكان رئيس تحرير صحيفة «ميجافون». توقَّف الناس عن الحديث عن الحروب والمجاعات والجفاف وحوادث الشوارع والبرلمانات وجرائم القتل اليومية العادية والإمبراطور الألماني، ليُركِّزوا ذهنهم على موضوع الساعة. هل سيُنفِّذ رجال العدالة الأربعة وعدَهم ويقتلون وزير الخارجية في الغد؟

لم يكن الحديث يدور عن أيِّ موضوع غير هذا. ها هو تهديدٌ بالقتل منذ شهرٍ مضى، وإن لم يحدث شيءٌ غير متوقع، فسيُنَفَّذ غدًا.

لا عجبَ أن الصحافة اللندنية أفردَت القسم الأكبر من مساحتها لمناقشة ظهور تيري ووقوعه في الأَسْر مرةً أخرى.

قالت صحيفة «التليجرام»: «ليس من السهل فهمُ السبب في أن صحفيَّين مُعينَين مُنتسبَين إلى صحيفةٍ مُنافِسة من صحف الإثارة الرخيصة، بعد أن كان الأوغاد في قبضتهما، سمحا بأن يُخلِّيا سبيلهم ليُنفذوا مخطَّطهم الشيطاني ضد رجلٍ عظيم من رجالات الدولة الذين لا مثيل لهم ... إن صحَّ ذلك، ونقول «إنْ»؛ لأنه من سوء الطالع في هذه الأيام التي استَشْرت فيها الصحافة الرخيصة ليس ممكنًا التسليم بصحة مزاعمِ كل خبرٍ صادر عن قدس أقداس صحيفةٍ مولعة بالإثارة على عواهنها؛ لذا إن صَحَّ أنَّ هؤلاء

الخارجين عن القانون قد زاروا بالفعل مقر الصحيفة المُنافِسة ليلة أمس، كما ذكرت.»
وفي الظهيرة عمَّمَت سكوتلاند يارد نشرةً مطبوعة عاجلة:

مكافأة ١٠٠٠ جنيهٍ إسترليني.

مطلوبٌ، بناءً على شكوكٍ في كونه على صلةٍ بتنظيمٍ إجرامي معروفٍ باسم «رجال العدالة الأربعة»، ميجيل تيري، الشهير باسم سايمونت، والشهير كذلك باسم لي تشيكو، من مدينة جيريز، بإسبانيا، إسباني لا يتحدث الإنجليزية، طوله ٥ أقدام و٨ بوصات، بُنيُّ العينَين، أسود الشعر، وله شاربٌ أسودُ خفيف، ووجه عريض، الندوب: نُدبةٌ بيضاء في الخد، جرحُ سكينٍ قديم في الجسد، ممتلئ البنية.

سوف تُدفع الجائزة المذكورة أعلاه لأي شخصٍ أو أشخاصٍ يتقدمون بمعلوماتٍ تقود الشرطة إلى الاستدلالِ عن المذكور تيري ذي الصلة بالعصابة الآثمة المعروفة باسم «رجال العدالة الأربعة» والقبضِ عليه.

من هذه النشرة يمكن استخلاصُ أنه، بناءً على المعلومات المقدَّمة من رئيس التحرير ومساعده في الساعة الثانية صباحًا، تواصلَت سكوتلاند يارد تلغرافيًّا مع السلطات الإسبانية على نحوٍ مستمرٍّ ومباشر، وأُوقِظ أشخاصٌ مهمون من أسرتهم في مدريد، وأُعيد تشكيلُ صحيفةِ سوابقِ تيري المسجَّلة في مكتب المباحث الجنائية من السجلات الأرشيفية لتبصير رئيس الشرطة النشيط.

أما السير فيليب رامون فقد جلس في غرفة مكتبه في بورتلاند بليس، ولاقى صعوبةً في التركيز في الرسالة التي كانت أمامه.

كانت رسالةً موجهة إلى وكيله في برانفيل، حيث الضَّيْعة الضخمة المملوكة له والتي مارس فيها دور الإقطاعي، خلال السنوات التي كان فيها بعيدًا عن المنصب.

وإذ لم يكن للسير فيليب زوجة ولا خليلة ولا ولد، فقد كتب ما يلي، والذي يُمْكِن أن يُستَخْلَص منه فحوى رسالته: «إذا تصادف ونجح هؤلاء الرجال في تنفيذ غرضهم، فإنني قد تركتُ مخصصاتٍ وفيرة، ليس لك وحدك، وإنما أيضًا لكلٍّ من خدموني بإخلاص.»

أثناء هذه الأسابيع القليلة الماضية، كانت مشاعر السير فيليب نحو النتيجة المحتملة لتصرُّفه قد شَهِدت تغيرًا.

كان الحنق من التجسُّس المستمر، الودِّي من جهة، والتهديدي من جهةٍ أخرى، قد وَلَّد لديه شعورًا مريرًا بالاستياء، لدرجة أن هذا الشعور الجديد طغى على كل مشاعر

الخوف التي كانت لديه. كان عقله مفعمًا بتصميمٍ واحد لا يتزعزع، وهو أن يُنجِز القانون الذي كان قيد الإعداد، وأن يُحبِط مخطَّط رجال العدالة الأربعة، وأن يُثبِت نزاهة وزيرٍ من وزراء التاج. كتب في سياق مقالٍ بعنوان «النزعة الفردية وعلاقتها بالخدمة العامة»، والذي نُشِرَ بعد بضعة شهورٍ في دورية «ذا كوارترلي ريفيو»: «من السخف، بل من الشناعة، أن نظن أن النقد العابر النابع من مصدرٍ ليس له أي سلطة على الإطلاق ينبغي أن يُؤثِّر أو ينعكس بأي طريقةٍ كانت على أحد أعضاء الحكومة من ناحية تصوُّره للتشريع اللازم للملايين من الناس المُوكَل إليه رعايتهم. إنه بمثابة الوسيط، المُعَيَّن رسميًّا حسب القانون، ليضع موضع التنفيذ أماني ورغباتِ أولئك الذين بطبيعة الحال لا يعتمدون عليه في توفيرِ وسائلَ وطرق لتحسين أحوالهم فحسب، أو في تخفيف القيود المزعجة على العلاقات التجارية الدولية، وإنما أيضًا في تأمين الحماية اللازمة لهم من الأخطار العارضة الناجمة عن الالتزامات التجارية البحتة. في تلك الحالة، لا يعود وزير التاج، الذي يُقَدِّر مسئولياته التقدير الواجب، إنسانًا ويصبح مجرد إنسانٍ آلي غير بشري.»

كان للسير فيليب رامون عددٌ قليل جدًّا من الأصدقاء. لم يكن لديه أيٌّ من الصفات التي تساعد على جعل أحدهم محبوبًا. كان رجلًا شريفًا مخلصًا قوي الشخصية. كان مخلوقًا قاسيًا، ساخرًا، خلت حياته من الحب. لم يكن متحمسًا، ولا ملهِمًا لأحد. كان من شأنه أن يتبنَّى تشريعًا معينًا إذا ما اقتنع أنه أقل خطأً من غيره. وإذا ما اقتنع أن تشريعًا ما من شأنه أن يكون ذا نفعٍ فوري أو جوهري لمواطنيه، كان يثابر لوضع ذلك التشريع موضع التنفيذ. قد يَصْدُق عليه أنه بلا طموحات وإنما فقط أهداف. كان أخطر رجلٍ في الحكومة، التي سيطر عليها بطريقته البارعة؛ إذ لم يكن يعرف معنى كلمة «حل وسط».

كان إذا تمسك بآراء في أي موضوعٍ، تصبح تلك الآراء آراء زملائه أيضًا.

شَهِد التاريخ القصير للإدارة الحاكمة أربعَ مراتٍ غطَّت فيها عبارة «شائعة استقالة وزير في الحكومة» الصحف الحائط في الشوارع، وفي كل مرة يكون الوزير الذي توَثَّق استقالته هو الرجل الذي تصادمَت آراؤه مع وزير الخارجية. في الأمور الصغيرة، كما في الكبيرة، كانت له طريقته الخاصة.

رفض رفضًا قاطعًا أن يقيم في مقر الرسمي، وتحوَّل العقار رقم ٤٤ بشارع داوننج ستريت، حيث مقَر وزارة الخارجية، إلى مكتبٍ وقصرٍ في الوقت نفسه. كان المنزل الكائن في شارع بورتلاند بليس هو بيته، ومن هناك كان يستقل سيارته كل صباح، مرورًا بساعةِ مبنى هورس جاردز وهي تُنهي آخر دقَّةٍ من دقاتها معلنةً الساعة العاشرة.

كانت غرفةُ مكتبه في بورتلاند بليس تتصل بالمقر الرسمي في داوننج ستريت بخط هاتفٍ فرعي خاص، ولكن لهذا السبب انقطع السير فيليب عن مقر الوزارة في داوننج ستريت، الذي كان شَغلُه هو مطمح كبارِ رجال حزبه.

ولكن، مع اقتراب اليوم الذي كان سيتطلَّب بذل كل جهدٍ ممكن، أصرَّت الشرطة على اصطحابه إلى مقره في داوننج ستريت.

فحسب قول رجال الشرطة، ستكون مهمة حماية الوزير في مقره الرسمي أبسط فقد كانوا يعرفون مداخل ومخارج مقر الوزارة في ٤٤ داوننج ستريت. وسيكون من الممكن تأمينُ حراسةٍ أفضل للطرق المؤدية إلى المقر، وعلاوةً على ذلك، سيتجنَّب رحلة السيارة — تلك الرحلة الخطرة بالسيارة! — بين بورتلاند بليس ومقر وزارة الخارجية.

تطلَّب الأمر بذل قدْرٍ كبير من الضغط والمناشدة لحث السير فيليب على اتخاذ هذه الخطوة، ولم يذعن إلا بعد أن أوضحوا له أن الحراسة التي سيكون خاضعًا لها لن تكون ظاهرة جدًّا له.

قال له مفتش المباحث فالموث بصراحة: «لن يروق لك أن تجد رجالي واقفين على باب حمامك يحملون ماء حلاقتك. لقد اعترضتَ على وجود أحد رجالي في حمامك عندما دخلته ذاك الصباح، واشتكيتَ من أن ضابطًا بملابس مدنية كان يقود سيارتك. حسنًا، يا سير فيليب، في داوننج ستريت أعدُك أنك حتى لن تراهم.»

بهذا حُسِم الجدل.

قبل مغادرة السير فيليب لمنزله في بورتلاند بليس إلى مقره الجديد مباشرةً، جلس يكتب رسالته إلى وكيله بينما كان مفتش المباحث يقف منتظرًا على بابه.

رنَّ جَرسُ الهاتف الموضوع إلى جانبه — كان يكره صوت الأجراس — وفي الهاتف سمع صوت سكرتيره الخاص يسأله في قلقٍ كم سيستغرق للوصول إلى مقر الوزارة.

قال السكرتير المتحمس الشاب: «إن عدد أفراد الشرطة المناوبين لدينا وصل إلى ٤٤ فردًا، واليوم وغدًا سوف ...» استمع السير فيليب في ضيقٍ ونفادِ صَبرٍ إلى سكرتيره وهو يتلو عليه تفاصيلَ إجراءاتِ حمايته.

قال بفظاظة: «ولماذا لم تُحضِروا خزانةً حديدية لتحبسوني فيها؟!» وأنهى المحادثة.

سمع الوزير صوت طرق على الباب وأطل فالموث برأسه إلى الداخل.

قال: «لا أريد أن أستعجلك، يا سيدي، ولكن ...»

وهكذا غادر الوزير بالسيارة إلى داوننج ستريت والغضب بادٍ على وجهه.

لم يكن معتادًا أن يستعجله أحدٌ، أو يتحكَّم فيه أحد، أو يتلقَّى أوامر من هنا وهناك. وزاد من حنقه أن رأى موكب الدراجات البخارية، الذي صار معتادًا، على جانبَي عربته، وأن يلاحظ كل بضع ياردات شرطيًّا في لباسٍ مدني يستمتع بالمنظر وهو واقف على رصيف الشارع، وعندما وصل إلى داوننج ستريت ووجد أن دخوله محظورٌ على كل العربات إلا عربته، وحشدٌ هائل من المتفرجين المهووسين مُتَجَمِّعٌ ليُهلِّل له أثناء دخوله، شعر لأول مرة في حياته بالمهانة.

وجد سكرتيره ينتظره في مكتبه الخاص ومعه مسودة الخطبة التي سيلقيها تمهيدًا للقراءة الثانية لمشروع قانون تسليم الأجانب.

قال السكرتير: «نحن على يقينٍ من أننا سنلقى قدْرًا كبيرًا من المعارضة، ولكن قيادة الحزب أرسلت تعليماتٍ صارمة بالحضور والتصويت لصالح مشروع القانون، ويتوقَّعون أن نحصل على أغلبيةِ ستةٍ وثلاثين صوتًا على أقل تقدير.»

قرأ رامون الملاحظات بعناية وأشعَرتْه بالاطمئنان والانتعاش.

أعادت إليه الشعور القديم بالأمان والأهمية؛ ففي نهاية الأمر، كان أحد كبار وزراء الدولة. وأخذ يقول لنفسه إنه لا شك في أن التهديدات في منتهى السخافة، وأن الشرطة هي الملومة على إحداث مثل هذه الجلبة، وبالطبع أيضًا الصحافة. أجل، تلك حقيقة الأمر؛ مجرد إثارةٍ صحفية.

كان ثَمَّةَ بشاشةٌ ولطف في أسلوبه وهو يلتفت إلى سكرتيره وعلى ثغره ابتسامةٌ خفيفة.

«ماذا عن أخبار أصدقائي المجهولين؟ ماذا يُطْلِق الأوغاد على أنفسهم؟ رجال العدالة الأربعة؟»

كان في كلامه تَصَنُّع؛ فهو لم يكن قد نسي لقبهم، بل كان في ذهنه ليلَ نهارَ.

تردَّد السكرتير قبل أن يجيب؛ فموضوع «رجال العدالة الأربعة» كان من الموضوعات المُحَرَّم عليه الحديث فيها مع رئيسه.

قال بصوتٍ واهن: «إنهم ... أوه، لم نسمع شيئًا أكثر مما سمعت؛ نعرف الآن من هو تيري، ولكن لا نعرف شيئًا عن رفاقه الثلاثة.»

زَمَّ الوزير شفتَيه.

وقال: «إنهم يمهلونني حتى ليلة غدٍ لأتراجع.»

«هل وصلكَ منهم شيءٌ مجددًا؟»

قال السير فيليب باستخفاف: «أقصر تحذير.»

«وإلا؟»

تجهَّم وجه السير فيليب، وقال باقتضاب: «وإلا فسيُنفِّذون وعدهم.» فقد أثارت كلمة «وإلا»، التي تلفَّظ بها سكرتيره، في أوصاله برودةً، لم يستطع أن يفهمها جيدًا.

في الغرفة العلوية في المصنع في شارع كارنابي، جلس تيري، شاحبًا ومتجهمًا وخائفًا، في مواجهة الثلاثة. قال مانفريد: «أريدك أن تفهم جيدًا أننا لا نحمل لك ضغينةً بسببِ ما أقدمتَ عليه. وأنا والسنيور بويكارت نرى أن السنيور جونزاليس أحسن صنعًا بإبقائه على حياتك وإعادتك إلينا.»

أخفض تيري عينَيه أمام ابتسامة مانفريد الموحية ببعض السخرية.

«ليلة غدٍ، إن دعت الضرورة، فستُنفِّذ ما اتفقنا معك على فعله. بعد ذلك، سترحل ...» ولم يكمل جملته الأخيرة.

تساءل تيري في غضبٍ مفاجئ: «إلى أين؟ إلى أين بحق السماء؟ لقد أخبرتُهم باسمي، وسيعرفون هُويتي. سيكتشفون ذلك بمراسلة الشرطة الإسبانية. إلى أين يُمكِنُني أن أذهب؟»

انتفض واقفًا، محملقًا بسخطٍ في الرجال الثلاثة، ويداه ترجفان غضبًا، وجسده الضخم ينتفض من فَرْط الغضب.

قال مانفريد بصوتٍ هادئ: «لقد وشَيتَ بنفسك، وذاك هو عقابك. لكننا سنجد لك مكانًا، وطنًا جديدًا تحت سماءٍ أخرى، أما فتاتك التي في جيريز فسوف تكون هناك في انتظارك.»

أخذ تيري ينقل نظراته من واحد إلى الآخر بتشكُّك، وتساءل في نفسه عما إذا كانوا يستهزئون به.

لم يكونوا يبتسمون؛ وحده جونزاليس كان ينظر إليه نظراتٍ ثاقبةً فضولية، وكأنه رأى مغزًى خفيًّا في الحديث.

تساءل تيري بصوتٍ مبحوح: «أتُقسِم على ذلك؟ أتُقسِم إنه ...»

قال مانفريد: «أتعهَّد لك بذلك، وإن شئت فسأُقسِم لك على ذلك.» واستطرد، قائلًا، وقد تغيَّرت نبرةُ صوته: «والآن، أتعرف ما هو المتوقع منك ليلة غدٍ؟ ما الذي عليك أن تفعله؟»

أومأ تيري برأسه.

«لا بُد ألا يكون ثمة عوائق؛ لا تصرفات خرقاء؛ أنا وأنت وبويكارت وجونزاليس سنقتل هذا الرجل الظالم بطريقةٍ لن يتوقَّعها أي أحد في العالم. من شأن عملية قتلٍ كهذه أن تُرَوِّع البشرية. موتٌ سريع، وأكيد، وبطريقةٍ خفية، دون أن ينتبه الحراس. يا إلهي، لم يُقْدِم أحدٌ على شيءٍ كهذا من قبلُ. يا له من ...» وفجأة صمَت تمامًا وقد تورَّد خداه واتقَدَت عيناه، والتقت عيناه بعيون رفيقَيه المُحدِّقة فيه. كانت ملامح بويكارت جامدة لا تشي بأي انفعالات، أما ليون فبدا عليه الاهتمام والفضول. خفَت احمرارُ وجه مانفريد.

قال الأخير بنبرةٍ شبه مُتذلِّلة: «أستميحكم عذرًا؛ فللحظةٍ نسيت القضية والغاية في غِمار غرابة الوسيلة.»

رفع يده في استنكار.

قال بويكارت بجدية: «إنه أمرٌ مفهوم.» وضغَط ليون على ذراع مانفريد.

للحظةٍ وقف الثلاثة في صمتٍ مرتبك، ثم أخذ مانفريد يضحك.

قال، وهو يَتقدَّمهم إلى المعمل المُرْتَجَل: «هيا إلى العمل!»

في الداخل خلع تيري مِعطَفه. هنا كان ميدان تخصُّصه، وتحوَّل من رجل خاضع تابع إلى الرجل الذي يتحكم في الثلاثة ويُوجههم، ويرشدهم، ويأمرهم، حتى جعل الرجال الذين كان، منذ بضع دقائق، يقف أمامهم مرتعبًا، يُهرولون من الاستوديو إلى المعمل، ومن طابق إلى آخر.

كان يوجد الكثير مما يتعين فعله، الكثير من الاختبارات، والكثير من الحسابات، والكثير من عمليات الجمع التي كان يتعيَّن إجراؤها على الورق؛ فقد كان قتل السير فيليب رامون يتطلَّب حشد كل موارد العلم الحديث في خدمة «الأربعة».

قال مانفريد فجأة: «سأُجري مسحًا للأرض.» واختفى داخل الاستوديو ثم عاد ومعه سلم نقال. فرَدَ السلمَ النقَّال ووضعه في الممر المظلم، وبعدما صعد عليه بسرعة دفع إلى أعلى بابًا سحريًّا كان يقود إلى سقف المبنى المسطح.

سحب جسده إلى أعلى بحرص، وزحف على السطح الرصاصي، وبعدما انتصَبَ واقفًا أخذ ينظر بحذر من فوق الحاجز المُنخفِض.

كان في مركز دائرةٍ قُطرها نصف ميل من الأسطُح غير المتساوية. ووراء خط الأفق لاحت لندن معتمةً عبر الدخان والضباب. بالأسفل كان الشارع مزدحمًا. أجرى مسحًا سريعًا للسطح بما عليه من أعمدة المدخنة، وعمود تِلغرافه القبيح الشكل، وسطحه الرصاصي ومزرابه؛ ثم، عبر مِنظار ميداني، أجرى مسحًا مطوَّلًا ودقيقًا للجهة الجنوبية.

زحف ببطء عائدًا إلى الباب السحري، ورفعه، ونزل عبره بحذرٍ شديد حتى لمسَت قدماه قمَّة السلَّم النقال. ثم نزل بسرعة، وأغلق الباب خلفه.

تساءل تيري بشيء من الانتصار في صوته: «ماذا وجدت؟»

قال مانفريد: «أرى أنك قد وضعت عليه علامة.»

قال تيري: «إنه أفضل هكذا؛ بما أننا سنَعملُ في الظلام.»

بادره بويكارت قائلًا: «إذن هل رأيت؟»

أومأ مانفريد برأسه.

«بشكل غير واضح تمامًا؛ يُمكن للمرء أن يرى مبنى البرلمان بصعوبة، ويرى داوننج ستريت عبارة عن خليط من الأسطح.»

كان تيري قد عاد إلى العمل الذي كان يستأثر بانتباهه. أيًّا كانت صنعته فقد كان حِرَفيًّا ماهرًا. بطريقة ما شعر أنه يجب عليه أن يبذل أفضل ما في وُسعه من أجل هؤلاء الرجال. كانوا قد أجبروه في الأيام الأخيرة على أن يُدركَ أفضليتهم، وكان حينئذٍ يطمح للتأكيد على مهارته، وتفرُّده، وأن يَحظى بتقدير هؤلاء الرجال الذي جعلوه يشعر بضآلته.

تنحَّى مانفريد والرجلان الآخران جانبًا ووقفوا يراقبونه في صمت. أخذ ليون يُحدِّق، بعبوس متحيِّر، في وجه تيري وهو يَعمل. كان ليون جونزاليس، العالم، وخبير علم ملامح الوجه (حاليًّا تُعْتَبَر ترجمته لكتاب «لاهوت ملامح الوجه البشري» هي الأجود)، يسعى جاهدًا إلى التوفيق بين المُجرِم والحِرَفي.

بعد قليل انتهى تيري من عمله.

قال وعلى وجهه ابتسامة رضا: «كل شيء جاهز الآن، دعوني أعثر على وزيركم ذاك، وامنحوني دقيقة واحدة من الحديث معه، وفي الدقيقة التالية سيكون قد لقيَ حتفه.»

كان وجهُه، الذي كان يبدو قبيحًا أثناء فترات صمته، يبدو الآن شيطانيًّا. كان مثل ثور عظيم من ثيران المصارعة في بلاده وقد زادته خنفرتُه للدم من منخارَيه شناعةً.

كانت وجوهُ رؤسائه تتبايَن تباينًا غريبًا مع وَجهِه. لم تختلج عضلة واحدة في وجه أيٍّ منهم. لم يكن في تعبيرات وجوهِهم ما يدلُّ على الابتهاج ولا الندم؛ لم يبدُ على وجوههم إلا تعبير غريب كالذي يَزحف على وجه القاضي الصارم وهو يُعلن حكم القانون الرهيب. أبصر تيري ذلك التعبير، وجعل الدم يجمد في عروقِه.

رفع يدَيه إلى وجهِه وكأنَّما يتقيهم.

وصاح قائلًا: «توقَّفُوا! توقفُوا! لا تنظروا إليَّ هكذا، بحق الرب، لا تنظروا إليَّ هكذا!» وغطَّى وجهه بيديه المرتعشتين.

سأله ليون برفق: «هكذا كيف يا تيري؟»

هز تيري رأسه.

«لا أستطيع أن أقول، مثل القاضي في غرناطة وهو يقول، وهو يقول: «ليُنَفَّذ الحُكم»!»

قال مانفريد بخشونة: «إن كنَّا نبدو هكذا، فلأننا قُضاة؛ ولسنا قضاة فحسب بل أيضًا جلادين نُنفِّذ حكمَنا.»

أصدر تيري صوت نشيجٍ وهو يقول: «لقد ظننتُ أنكم ستُسرُّون.»

قال مانفريد بجدية: «لقد أحسنتُ صنعًا.»

قال الآخران: «جيد! جيد!»

أضاف مانفريد برصانة: «لِنُصَلِّ إلى الرب أن تُكَلَّل مهمتنا بالنجاح.» وحدق تيري في هذا الرجل الغريب في ذهول.

أبلغ فالموث مفوض الشرطة عصر ذلك اليوم أن كل الترتيبات لحماية السير رامون قد استُكْمِلَت.

«لقد ملأت مقرَّ وزارة الخارجية برجالنا؛ يوجد بالفعل رجل في كل غرفة. ووضعت أربعة من أفضل رجالنا على السطح، ووضعت رجالًا في القبو، وآخرين في المطابخ.»

سأله مُفَوَّض الشرطة: «ماذا عن الخدم؟»

«لقد جلب السير فيليب خدمه من الريف، والآن لا يوجد شخص في مقرِّ الوزارة من السكرتير الخاص وحتى البواب إلا وأعرف سيرة حياته من الألف إلى الياء.»

أطلق مُفَوَّض الشرطة تنهيدة مُتوتِّرة.

قال: «سأكون في غاية السعادة عندما يمرُّ يوم الغد بسلام. ما الترتيبات النهائية؟»

«لا يوجد أي تغييرات، يا سيدي؛ فقد عالجنا كل شيء صبيحة يوم مجيء السير فيليب. سوف يبقى في مقر وزارة الخارجية طوال يوم غد حتى الساعة الثامنة والنصف، ثم يذهب إلى البرلمان في الساعة التاسعة ليستهلَّ قراءة مشروع القانون، ثم يعود في الساعة الحادية عشرة.»

قال مُفَوَّض الشرطة: «لقد أصدرت الأوامر بتحويل الحركة المرورية إلى الطريق المُوازي للنهر بين التاسعة إلا الربع والتاسعة والربع، وكذلك في الساعة الحادية عشرة.

وستتَّجه أربع مركبات مغلقة من داوننج ستريت إلى البرلمان، وستتبعها مباشرةً عربةٌ تُقِلُّ السير فيليب.»

سُمِع طرقٌ على باب مكتب مُفَوَّض الشرطة، حيث كانت المحادثة تدور في مكتبه، ودخل شرطي. كان يَحمل بطاقة تعريف في يده، ووضعها على الطاولة.

قرأ مُفَوَّض الشرطة البطاقة: «سنيور جوزيه دي سيلفا»، ثم قال موضِّحًا لمفتش المباحث: «رئيس الشرطة الإسبانية.» ثم قال مخاطِبًا الضابط: «أدخله، من فضلِك.»

ألقى السنيور دي سيلفا، الذي كان رجلًا ضئيل الجسم رشيق القوام، التحية على الرجال الإنجليز بتأدُّب مبالغ فيه تختص به الدوائر الرسمية الإسبانية.

قال مفوض الشرطة، بعد أن صافح الضيف وقَدَّمه إلى فالموث: «أعتذر عن استدعائي لك؛ لكننا ارتأينا أنه قد يكون بوسعك مساعدتنا في بحثنا عن تيري.»

قال الإسباني: «من حسن الحظ أنني كنتُ في باريس؛ أجل، أعرف تيري، ويدهشني أن أجده ضمن هذه المجموعة المُميَّزة. هل أعرف «الأربعة»؟» ثم رفع كتفيه إلى أعلى، واستطرد: «ومن يعرفهم؟ أعلم بوجودهم؛ فقد كانت ثمة قضية في مَلَقَة، أتعلم بها؟ إن تيري ليس مجرمًا بارعًا. لقد دُهِشتُ عندما علمتُ أنه انضمَّ إلى العصابة.»

قال مفوض الشرطة، وهو يلتقط نسخة من إشعار الشرطة كانت على مكتبه، ويُلقي عليها نظرة: «بالمناسبة، لقد أغفل رجالك أن يذكروا صنعة تيري، مع أنه ليس أمرًا ذا بال.»

رفع الشرطي الإسباني حاجبَيه.

وقال: «صنعة تيري! دعني أتذكر.» أخذ يفكر لبرهة، ثم قال: «صنعة تيري؟ لا أحسبني أعرف؛ ولكن لديَّ فكرة أنها شيء له علاقة بالمطاط. أول جريمة ارتكبها كانت سرقة مطاط؛ لكن إن أردتَ أن تعرف يقينًا ...»

ضحك مفوض الشرطة.

قال بلا مبالاة: «إنه حقًّا ليس بالأمر المُهم.»

الفصل السابع

مبعوث الأربعة

كان لا يزال ثمة رسالة أخرى ستُسَلَّم إلى الوزير المنكوب. في الرسالة الأخيرة التي كان قد تسلمها ورَدَت هذه الجملة: «سوف تتلقَّى تحذيرًا آخر، ولكي نتيقن من أن رسالتنا الأخيرة لن تضيع، ستُسَلَّم إليك يدًا بيد بواسطة واحد منا بنفسه.»

كانت هذه الفقرة مصدرًا لاطمئنان الشرطة أكثر من أيِّ حدث آخر منذ بداية حالة الذعر. فقد وثقوا ثقةً غريبةً في صدق رجال العدالة الأربعة؛ إذ أدركوا أن هؤلاء ليسوا مجرمين عاديِّين وأنهم سيَلتزمون بتعهدهم. في الواقع، لو كانوا ظنوا خلاف ذلك، ما كانوا سيتخذون الاحتياطات المعقدة التي اتخذوها لضمان سلامة السير فيليب. لقد كان صدق رجال العدالة الأربعة هو أفظع صفاتهم.

في هذه الحالة عَمِل صدقهم على إحياء أمل واهن في أن الرجال الذين كانوا يتحدُّون سيادة القانون سيَفشل مسعاهم. كانت الرسالة التي تحمل هذه الفقرة هي التي كان السير فيليب قد أشار إليها باستخفاف أثناء حديثه مع سكرتيره. كانت قد وصلَت بالبريد، تحمل الختم البريدي «بَلهام، ١٢.١٥».

تساءل فالموث في حيرة: «السؤال المُهم هو: هل نُشدد الحراسة عليك، حتى لا يكون ثمة أي احتمال في تمكُّن هؤلاء الرجال من تنفيذ تهديدهم؟ أم نتظاهر بالتراخي في يقظتنا لنجتذب أحد الأربعة إلى هلاكه؟»

وُجِّه السؤال إلى السير فيليب رامون بينما كان جالسًا مُتكوِّمًا على نفسه وغائصًا في كرسي مكتبه.

سأله بحدَّة: «أتُريد أن تستخدمني طُعمًا؟»

احتجَّ رجل المباحث على قوله.

«ليس بالضبط، يا سيدي؛ نُريد أن نُعطيَ هؤلاء الرجال فرصة ...»

قال الوزير، مُظهرًا بعض الحنق: «إنني أفهم تمامًا ما تعنيه.»

استأنف رجل المباحث حديثه:

«نحن نعرف الآن كيف هُرِّبَت القنبلة الزمنية إلى داخل مبنى البرلمان؛ ففي اليوم الذي ارتُكِب فيه الاعتداء، شُوهد السيد باسكو العجوز، النائب عن نُورث تورينجتون، يدخل مبنى البرلمان.»

تساءل السير فيليب في دهشة: «وماذا في ذلك؟»

قال رجل المباحث بهدوء: «لقد كان السيد باسكو يبعد أكثر من مائة ميل عن نطاق مجلس العموم في ذلك التاريخ. كان من المُمكن ألا نَكتشِف الأمر أبدًا؛ لأن اسمه لم يظهر في قائمة الاقتراع. لقد كنا نعمل في صمت منذئذٍ لكشف غموض مسألة مجلس العموم تلك، واكتشفنا الأمر منذ يومين فقط.»

قفز السير فيليب من كرسيه وأخذ يَذرع الغرفة بعصبية جيئة وذهابًا.

قال مؤكدًا وليس متسائلًا: «إذن فمن المؤكد أنهم مُلمُّون إلمامًا تامًّا بظروف الحياة في إنجلترا.»

«من المؤكَّد ذلك؛ إنهم مُحيطون بالوضع على الأرض، وذلك هو أحد الأخطار المتعلِّقة بالموقف.»

قال الآخر عابسًا: «ولكنَّك قلت لي إنه لا توجد أخطار، لا توجد أخطار حقيقية.»

أجاب المفتِّش، وهو ينظر إلى الوزير بثبات، مخفضًا صوته: «ثمة خطر قائم، وهو أن رجالًا لديهم القدرة على التنكر هكذا هم في الحقيقة ليسوا من زمرة المُجرمين التقليديِّين. لا أعرف ما اللعبة التي يَلعبونها، ولكن مهما كانت، فهم يلعبونها ببراعة منقطعة النظير. أحدهم فنان في هذا النوع من الأمور، وهو الرجل الذي أخشاه، اليوم.»

أرجع السير فيليب رأسه إلى الوراء فجأة بنفاد صبر.

قال: «لقد سئمت كل هذا، سئمته.» وضرب سطح مكتبه براحة يده، وتابع قائلًا: «رجال مباحث، وقتلة مُتنكِّرون ومُقنعون حتى صار الجو العام بالضبط وكأننا في ميلودراما.»

قال الضابط بصراحة: «يجب أن تتحلَّى بالصبر ليوم أو يومين.»

كان رجال العدالة الأربعة يَضغطون على أعصاب أناس آخرين بخلاف وزير الخارجية.

وأضاف: «ونحن لم نُقرِّر بعد الخطة التي سنتبعها هذه الليلة.»

قال السير فيليب باقتضاب: «افعل ما تشاء.» ثم أضاف: «هل سيُسْمَح لي بالذهاب إلى البرلمان الليلة؟»

أجاب مفتش المباحث: «لا، هذا ليس ضمن البرنامج.»

وقف السير فيليب مُفكرًا لبرهة.

«هذه الترتيبات سرية على ما أظن. أليس كذلك؟»

«بالتأكيد.»

«من لديه علمٌ بها؟»

«أنت، ومفوض الشرطة، وسكرتيرك، وأنا.»

«ولا أحد غير هؤلاء؟»

«لا أحد؛ ليس ثمة خطر يُحْتَمَل أن يأتي من ذلك المصدر. لو كانت سلامتك تَعتمِد على سرية تحركاتك لكان الأمر سهلًا.»

سأله السير فيليب: «هل سُجِّلَت هذه الترتيبات كتابةً؟»

«لا، يا سيدي؛ لم يُكْتَب أي شيء؛ لقد استقررنا على خطتنا وتناقلناها شفاهيًّا؛ وحتى رئيس الوزراء نفسه لا يعرف بشأنها.»

تنفَّس السير فيليب الصعداء.

قال، ورجل المباحث يَنهض ليُغادِر: «ذلك جيد.»

قال رجل المباحث: «لا بد أن أذهب لمقابلة مفوض الشرطة. سأغيب أقل من نصف ساعة؛ وأقترح ألا تُغادِر غرفتك خلال هذا الوقت.»

اصطحبه السير فيليب إلى غرفة الانتظار؛ حيث كان هاملتون، سكرتيره الخاص، جالسًا.

قال فالموث، بينما كان أحد رجاله يقترب منه حاملًا معطفًا طويلًا، ويساعده في ارتدائه: «لقد راوَدَني شعور بعدم الارتياح، شعور غريزي في اليوم أو اليومين الأخيرين، بأن أحدهم يراقبني ويَتبعني، لذلك أستخدم سيارةً في تحركاتي من مكان إلى آخر؛ لا يمكنهم أن يتتبعوا السيارة، دون أن يَجذبوا بعض الانتباه.» وضع يده في جيب معطفه وأخرج نظارة قيادة دراجات بخارية. ضحكَ بخجل نوعًا ما وهو يضبطها على عينيه. قال: «هذا هو التنكُّر الوحيد الذي أستعمله.» وأضاف ببعض الأسف: «وبوسعي أن أقول، يا سير فيليب، إنَّ هذه هي المرة الأولى طوال الخمسة والعشرين عامًا التي أمضيتها في الخدمة التي أتصرف فيها تصرفات حمقاء كتلك التي تصدر عمَّن يُؤدُّون أدوار المحققين على خشبة المسرح.»

بعد مغادرة فالموث عاد وزير الخارجية إلى مكتبه.

كان يكره البقاء وحيدًا؛ إذ كان ذلك يُشعرُه بالخوف. لم يُبدد علمه بوجود أربعين من رجال المباحث، على أهبة الاستعداد في مبني وزارة الخارجية، شعوره بالوحدة. كان الرعب من رجال العدالة الأربعة يُلازمه، وأثَّر ذلك على أعصابه؛ حتى إن أبسط ضوضاء كانت تستفزُّه. أخذ يلعب بحامل الأقلام الذي كان موضوعًا على مكتبه، ويُشخبِط شخبطةً بلا مغزى على النشافة التي كانت أمامه، وانزعج حين وجد أن تلك الشخبطة قد اتخذت شكل أعداد على هيئة الرقم أربعة.

هل كان مشروع القانون يستحق ذلك؟ هل الأمر يَستدعي التضحية؟ هل هذا القانون بذلك القدر من الأهمية لدرجة أن يُبرِّر المخاطرة؟ أخذ يسأل نفسه هذه الأسئلة مرارًا وتكرارًا، ثم على الفور سأل نفسه: «أي تضحية؟ وأي مُخاطرة؟»

تمتم، مُخاطبًا نفسه، وهو يُلقي بالقلم جانبًا، ويتحوَّل بجذعِه مُستديرًا نصف استدارة بعيدًا عن طاولة الكتابة: «إنني أبالغ أكثر من اللازم في اعتبار العاقبة أمرًا مُسلَّمًا به. ليس من المؤكَّد أنهم سيُنفذون وعيدهم؛ هراء! من المستحيل أن ...»

سمع صوت طرق على الباب.

قال وزير الخارجية، والطارق يدخل: «مرحبًا، أيها المفتِّش. لقد عُدْتَ سريعًا!»

أخرج المفتش من جيبه مظروفًا أزرق يبدو كالمظاريف الحكومية، وأخذ يَمسح بهمةٍ الغبار عن شاربه بمنديل.

قال، مُخْفِضًا صوته: «ارتأيت أنَّ من الأفضل أنْ أترك هذا في عهدتك؛ لقد تبادَرَ ذلك إلى ذهني بعد أن غادرتُ مباشرةً؛ فالحوادث واردة الحدوث، كما تعلم.»

أخذ الوزير منه الوثيقة.

سأله: «ما هذا؟»

قال المفتِّش، وهو يستدير ليُغادر: «إنه شيء يُمكن أن يسبب لي كارثةً محققةً إن تصادف وعُثِر عليه في حوزتي.»

«وماذا عساي أن أفعل به؟»

قال المفتِّش: «سأكون مدينًا لك بفضلٍ عظيمٍ إن وضعته في درج مكتبك حتى أعود.»

ودخل المفتِّش إلى غرفة الانتظار، وأغلق الباب خلفه، وبعد أن ردَّ تحية الضابط ذي الملابس المدنية الذي كان يَحرس الباب الخارجي، توجَّه إلى السيارة التي كانت تُنتظرُه.

نظر السير فيليب إلى المظروف في عُبوس وحيرة.

كان مُعنونًا بكلمة «سري» ومكتوب عليه العنوان التالي: «الإدارة «أ»، سكوتلاند يارد.»

قال السير فيليب في نفسه، مُفكِّرًا: «يبدو أنه تقرير سري.» وامتلأ عقلُه بشكٍّ غاضِب في احتمال أن يكون مُتضمنًا تفاصيل ترتيبات الشرطة الخاصة بسلامته. كان قد أصاب مصادفةً كبد الحقيقة وليتَه كان يعرف. فقد كان المظروف يحتوي على تلك التفاصيل.

وضع الخطاب في أحد أدراج مكتبه، وتناول بعض الأوراق.

كانت عبارة عن نسخ من مشروع القانون الذي كان موقنًا أنه سيمرره.

لم تكن وثيقة طويلة. كانت البنود قليلة العدد، أما الأهداف، المذكورة باقتضابٍ في الديباجة، فكانت محدَّدة بإيجاز بليغ. لم يكن ثمة خوف من الفشل في تمرير مشروع القانون هذا يوم غد. فقد صار الحصول على أصوات الأغلبية الموالية للحكومة مؤكدًا. كان الرجال قد استُدعوا إلى المدينة، وأُجبِر الشاردُون على العودة إلى الصف، واستعانَت الحكومة بالمناشَدَة والتَّهديد على حدٍّ سواء في تركيز قوَّتها، الآخذة في التضاؤل بسُرعة، في هذا الجهد المبذول لتمرير هذا التشريع؛ وحقَّق الفضول ما فشلت في تدبيره المناشَدَات المحمومة لأعضاء أيٍّ من الحزبَين، المسئولين عن ضمان تصويت أعضائه في البرلمان بما يَتماشى مع سياسة الحزب؛ إذ كان أعضاء الحزبين يُهرعون إلى المدينة ليكونوا حاضرين لمشهد قد يكون تاريخيًّا، ومأساويًّا، كما كان كثيرون يَخشَون.

بينما كان السير فيليب يفحص الورقة بعناية شكَّل تلقائيًّا في ذهنه خط الهجوم؛ فسواء كان ذلك مأساويًّا أم لا، فقد كان السماح بتمرير مشروع القانون دون جدال عاصف يضر بمصالح كثيرة جدًّا في البرلمان. كان خبيرًا في الجدال، وبارعًا في الاحتيال الشرعي، ويُجيد صياغة عبارات صادمة ولاذعة. لم يكن يوجد ما يخشاه في المناقشة. تمنَّى لو أن ... آلَمَه التفكير في رجال العدالة الأربعة. ليس لأنهم هدَّدُوا حياته، فقد كان قد تجاوَزَ ذلك الأمر؛ لكن لمجرد التفكير في أن عاملًا جديدًا قد دخل في حساباته، قوة جديدة ومُفزعة، لم يكن من الممكن هزيمتها بالمجادلة أو تحييدها بمُزحة لاذعة، ولا الكيد لها، ولا تقويمها بأي وسيلة برلمانية. لم يجُل بخاطره اللجوء إلى تسوية. فاحتمال التوصُّل إلى اتِّفاقٍ لم يخطر بباله ولو مرَّة واحدة.

صاح: «سأمضي في الأمر مهما كانت الصعاب!» ليس مرة بل مرات كثيرة؛ «سأمضي في الأمر مهما كانت الصعاب!» والآن، مع اقتراب اللحظة الحاسمة، أصبح تصميمه على الدخول في صراع مع هذه القوة العالَمية الجديدة أشد من أي وقت مضى.

كان جالسًا على مكتبِه ورأسه مدفون بين يديه، عندما رَنَّ جرس الهاتف الذي كان ملاصقًا لمرفقه، رفع المسماع. ذَكَّره صوت كبير خدمه بأنه كان قد رتَّب لإعطاء تعليمات بغلقِ منزله في بورتلاند بليس.

كان ينوي إخلاء منزله ليومَين أو ثلاثة، أو حتى يَنحسِر هذا الإرهاب. ما كان ليُخاطرَ بحياة خدمه. إذا انتوى الأربعة أن يُنفِّذُوا خطتهم فلن يعرضوا أنفسهم لاحتمالات الفشل، وإن كانت الطريقة التي سيَلجئون إليها هي استعمال قنبلة، عندئذٍ، من أجل أن يتأكَّدُوا تمام التأكد من نجاح مُخطَّطهم، من المحتمل أن يَتزامن حدوث تفجير في داوننج ستريت مع اعتداء على منزله في بورتلاند بليس.

كان قد أنهى حديثه في الهاتف، وأعاد مِسماعه عندما أنبأ طرقٌ على الباب بدخول مفتش المباحث.

نظر بقلق إلى الوزير.

وسأله: «ألم يأتِ أحدٌ، يا سيدي؟»

ابتسم السير فيليب.

«إذا كنت تقصد إن كان أحدٌ من «الأربعة» قد أتى وسَلَّم إنذارهم الأخير شخصيًّا، فيمكنك أن تهدأ بالًا؛ لم يَفعلُوا.»

ظهر ارتياحٌ واضحٌ على وجه رجل المباحث.

قال في حماس شديد: «حمدًا للرب! لقد كان لديَّ خوفٌ فظيع من أن يحدث شيءٌ وأنا غائب. ولَكِن لديَّ أخبارٌ لك، يا سيدي.»

«حقًّا؟!»

«أجل، يا سيدي. لقد تلقى مفوض الشرطة برقية طويلة من أمريكا. منذ وقوع جريمتَي القتل في ذلك البلد انهمَكَ أحد رجال بينكرتون في جمع البيانات. لأعوام ظل يُجَمِّع الأدلة المفكَّكة التي تمكَّن من التوصُّل إليها، وها هي برقيته.» أخرج المفتش ورقةً من جيبه وبسَطَها على المكتب وقرأ:

بينكرتون، شيكاغو، إلى مُفوض الشُّرطة، سكوتلاند يارد، لندن

حَذِّروا رامون أن رجال العدالة الأربعة لا يَتراجعُون عن وعيدهم. إن هدَّدُوا بالقتل بطريقة معيَّنة وفي وقتٍ مُعيَّن فسيُنفِّذون تهديدهم بدقة تامة. لدينا ما يُثبِت هذه الخصلة فيهم. بعدما لقي أندرسون حتفه اكتُشِفت مفكرةٌ، كان من الواضح أنها تُرِكَت عمدًا، خارج نافذة إحدى الغرف. كانت المفكِّرة فارغة عدا

ثلاث صفحات، كانت مملوءة بمُذكِّرات مكتوبة بخط منمق ومعنونة بعبارة «ست طرق للاغتيال». كانت موقَّعة بحرف «سي» (الحرف الثالث في الأبجدية). حَذَّروا رامون مما يلي: شُرب القهوة بأي طريقة كانت، فتح رسائل أو طرود، استخدام صابون إلا إذا كان من صنع مصدر موثوق به، الجلوس في أي غرفة بخلاف غرفة يشغلها ليل نهار أحد ضباط الشرطة. فتَّشوا غرفة نومه؛ تأكدوا مما إذا كان ثمة أي طريقة يمكن بها إقحام غازات ثقيلة. لقد أرسلنا اثنين من رجالنا على الباخرة «لوكانيا» لحراسته.

انتهى المفتش من القراءة. لم تكن كلمة «لحراسته» هي آخر كلمة في الرسالة الأصلية، كما كان يعرف. كانت تتبعها ملاحظة مشئومة هي «نخشى أن يصلا بعد فوات الأوان.»

سأله رجل الدولة: «إذن أنت تظن؟»

أجاب المفتش: «إن الخطر الذي أنت مُعرضٌ له يكمن في أحد الأشياء التي يحذرنا بينكرتون منها. لا خوف من أن تكون الشرطة الأمريكية تتكلم عبثًا. لقد استندوا في تحذيرهم إلى معرفة مؤكدة؛ ولهذا أعتبر برقيتهم مهمة.»

كان ثمة طرق حاد على اللوح الزجاجي للباب، ودون انتظار لدعوته للدخول، دخل السكرتير الخاص إلى الغرفة، مُلوِّحًا بحماس بصحيفة.

صاح قائلًا: «انظرا إلى هذا! اقرأ هذا! لقد اعترف «الأربعة» بفشلِهم.»

صاح المُفتِّش، وهو يمدُّ يده ليأخذ الصحيفة: «ماذا؟!»

تساءل السير فيليب بحدة: «ماذا يعني هذا؟»

«لا يعني، يا سيدي، إلا أنَّ هؤلاء الرجال، على ما يبدو، قد نشروا بالفعل مقالًا في هذه الصحيفة عن «رسالتهم».»

«في أيِّ صحيفة؟»

«صحيفة «ميجافون». يبدو أنهم عندما استعادُوا تيري، طلب رئيس التحرير من الرجل المقنَّع أن يَكتب له مقالًا عن نفسه، وقد فعلُوا؛ وها هي هنا، وقد اعترفوا فيها بفشلهم، أيضًا. أيضًا ...»

كان المُفتِّش قد أمسكَ بالصحيفة وقاطع حديث السكرتير غير المُترابط.

قرأ مكتوبًا: «عقيدة رجال العدالة الأربعة». «أين اعترافهم بالفشل؟»

قال السكرتير الشاب: «في منتصف العمود. لقد وضعت عليها علامة. هنا.» وأشار الشاب بإصبع مرتجف إلى الفقرة.

قرأ المفتش: «إننا لا نترك شيئًا للصدفة. إن حدَثَ أدنى خطأ، أو أُجهِضَت أقل تفصيلة في خطتنا، فإننا نُقر بالهزيمة. ومن فرط تأكُّدنا من أن وجودنا على وجه الأرض ضروري لتنفيذ خطة عظيمة، وثقتنا في كونِنا أدوات لا غِنى عنها في يد عناية إلهية، لا نَجرُؤ، في سبيل قضيتنا، على القبول بأي مجازَفات غير ضرورية. ومِن ثَمَّ فمن الضروري أن تُنَفَّذ الاستعدادات المختلفة لكلِّ عملية اغتيال تنفيذًا كاملًا. مثال ذلك، سيكون من الضروري لنا أن نُسَلِّم إنذارنا الأخير إلى السير فيليب رامون؛ وأن نُضيف نقطة إلى هذا الإنذار، وهي نقطة، حسب شِرْعَتِنا، جوهرية لدرجة أن ذلك الإنذار لا بدَّ أن يُسَلِّمه واحدٌ منا بشخصه إلى الوزير. اتُّخِذَت جميع الترتيبات لوضع هذا الجزء من برنامجنا موضع التنفيذ. لكن مقتضيات نظامنا الاستثنائية هي أنه إذا تَعَذَّر تسليم هذا الإنذار إلى السير فيليب وفقًا لتعهُّدنا، وقبل الساعة الثامنة هذا المساء، فإن ترتيباتنا تنهار، ويتعيَّن عندئذٍ الامتناع عن تنفيذ عملية الاغتيال التي خطَّطنا لها.»

توقف المفتش عن القراءة، وخيبة الأمل بادية على كل قَسمات وجهِه.

«لقد ظننتُ، يا سيدي، من الطريقة التي كنتَ تتصرَّف بها أنك قد اكتشفتَ شيئًا جديدًا. لقد قرأتُ كل هذا؛ فقد أُرْسِلَت نسخة من المَقال إلى سكوتلاند يارد فور خروجها من المطبعة.»

ضرب السكرتير المكتب بقبضته بنفادِ صبر.

وصاح: «ولكن ألا ترى؟! ألا تَفهم أنه لم تَعُد تُوجَد أي حاجة لحراسة السير فيليب، وأنه لا يوجد سبب لاستخدامه طُعْمًا، أو في الواقع، لفعل أي شيء إن كنَّا نَعتقِد أن هؤلاء الرجال. انظر إلى الوقت.»

بسرعة اتَّجهت يد المفتش إلى جيبه، وأخرج ساعته، ونظر إلى عقاربها، وصَفَّر مُندهِشًا.

تمتَمَ مَشدوهًا: «الثامنة والنصف، عجبًا!» وخيَّم على الثلاثة الصمت في ذهول.

قطع السير فيليب حبلَ الصمت.

قال بصوتٍ مبحوح: «أهيَ حيلة لجَعلِنا نتخلَّى عن حذرنا؟»

أجاب المُفتِّش ببطء: «لا أظن ذلك، أنا واثق من أن الأمر ليس كذلك؛ ولن أُخفِّف من حراستي، لكنَّني مُقتنعٌ تمام الاقتناع بنزاهة هؤلاء الرجال، ولست أعرف لماذا أقول هذا؛ ذلك لأنني تعاملتُ مع المُجرمين طيلة الخمسة والعشرين عامًا الماضية، ولم أُولِ مثقال

ذرة من ثقةٍ مطلقًا لكلمة أفضلهم، لكنني بطريقة ما لا أستطيع أن أُكَذِّب هؤلاء الرجال. إن كانوا قد فشلوا في توصيل رسالتهم فلن يُزعجونا مجددًا.»

أخذ رامون يَذرع الغرفة جيئة وذهابًا بخطوات سريعة وعصبية.

تمتم قائلًا: «أتمنى أن أصدق ذلك؛ أتمنى لو كان عندي ثقتك تلك.»

سمعوا صوتَ نَقرٍ على لوح الباب.

قال خادم رمادي الشعر: «برقيةٌ عاجلةٌ للسِّير فيليب.»

مدَّ الوزير يده ليأخذَها، لكن المُفتِّش سبقه إليها.

قال له، وهو يفضُّ المظروف البني: «تذكر برقية بينكرتون، يا سيدي.»

وقرأ ما يلي:

تلقَّينا للتوِّ برقية تلغرافية سُلِّمَت في مكتب برقيات شيرنج كروس.

٧:٥٢ بداية البرقية: «لقد سَلَّمنا رسالتنا الأخيرة إلى وزير الخارجية، توقيع: رجال العدالة الأربعة.» نهاية البرقية. هل هذا صحيح؟

رئيس التحرير، صحيفة ميجافون

عندما انتهى فالموث من القراءة، تساءل في حيرة: «ماذا يعني هذا؟»

أجاب السير فيليب بحدة: «يعني يا عزيزي السيد فالموث أن أصحابك «الأربعة» الشُّرفاء كاذبون ومُدَّعون بالإضافة إلى كونهم قتلة؛ ويَعني في الوقت نفسه، حسبما آمُل، نهاية ثقتك السخيفة في نزاهتهم.»

لم يُجِب مفتش المباحث، لكن وجهه اكفهرَّ وعضَّ على شفتَيه في حيرة.

تساءل: «ألم يأتِ أحدٌ بعد مُغادرتي؟»

«لا، لم يأتِ أحد.»

«ألم ترَ أحدًا بخلافي أنا وسكرتيرك؟»

أجاب رامون باقتضاب: «لم يتحدَّث معي أحدٌ على الإطلاق، ولم يدنُ منِّي أحدٌ مسافة عشر ياردات.»

هزَّ فالموث رأسه في إحباط.

تساءل، وكأنَّما يُوجه حديثه إلى نفسه أكثر من كونه يُخاطب أيَّ أحد في الغرفة، وهو متَّجه نحو الباب: «حسنًا. أنا. أين نحن؟»

عندئذٍ تذكَّر السير فيليب الحزمة التي تُرِكَت في عُهدته.

قال، وهو يَفتح درج مكتبه ويُلقي بالحزمة التي تُرِكَت في عهدته على الطاولة: «يَحْسُن أن تأخذ وثائقك الثمينة.»

تطلَّع مفتش المباحث متحيرًا.

وتساءل، وهو يَلتقِط المظروف: «ما هذا؟»

قال السير فيليب: «يَبدو أن صدمة اكتشافِك أنك خُدِعت في تقديرك للبغاة على شخصي قد أذهلتك.» وأضاف بصراحة: «لا بد أن أطلب من مفوض الشرطة أن يبعث بضابط يتمتع بفهم أفضل للعقلية الإجرامية، وثقة طفولية أقل في شرف القتلة.»

قال فالموث: «فيما يختصُّ بهذا الشأن، يجب أن تفعل ما ترى أنه الأصلح. لقد أديتُ واجبي على نحوٍ يُرضيني؛ ولا رقيب عليَّ ينتقدني أكثر من نفسي. لكن ما أنا أكثر تلهفًا إلى سماعه هو ما تَعنيه بالضبط بقولك إنني تركت في عُهدتك أوراقًا.»

حملق وزير الخارجية عبر الطاولة في ضابط الشرطة الهادِئ.

قال بخُشونة: «إنني أُشير، يا سيد، إلى المظروف الذي عدتَ لتتركه في عهدتي.»

حدَّق مُفتِّش المباحث في استغراب.

قال بصوت مُتوتِّر: «أنا، لم، أعد. لم أُسلِّمك أي أوراق.» التقط الحزمة من فوق الطاولة، وفضها، وكشف عن مظروفٍ آخر بداخلِها. وعندما وقعت عيناه على الغُلاف الرمادي المُخضرِّ أطلق صيحة حادَّة.

قال فالموث: «هذه رسالة الأربعة.»

ترنَّح وزير الخارجية مُتراجعًا إلى الوراء خُطوة، وقد علاه الشُّحوب.

قال وهو يَشهق: «وماذا عن الرجل الذي سلَّمها لي؟»

قال مُفتِّش المباحث في تجهُّم: «كان واحدًا من رجال العدالة الأربعة. لقد أَوفَوا بعهدهم.»

خطا خطوةً سريعةً نحو الباب، ومر عبره إلى غرفة الانتظار واستدعى الضابط ذي اللباس المدني الذي كان يَحرس الباب الخارجي.

سأله: «هل تذكر أنك رأيتني أغادر؟»

«نعم، يا سيدي؛ في كلتا المرتَين.»

قال فالموث بمرارة: «كلتا المرتين، نعم! وكيف بدوتُ في المرة الثانية؟»

تحير مرءوسُه من صيغة السؤال.

قال بتلعثم: «كالمعتاد، يا سيدي.»

«ماذا كنتُ أرتدي؟»

فكر الشرطي لبرهة.

ثم قال: «معطفك الطويل الواقي من الغبار.»

«وأظن أنني كنت أضع نظارتي الواقية، أليس كذلك؟»

«أجل، يا سيدي.»

تمتم فالموث بغضب: «ظننتُ ذلك.» ونزل بسرعة على السلالم الرخامية المُؤدِّية إلى بهو المدخل. هناك كان يقف في الخدمة أربعة رجال، أدوا له التحية العسكرية وهو يقترب منهم.

سأل الرقيب المسئول عنهم: «أتذكر أنك رأيتني أُغادِر؟»

أجاب الشرطي: «أجل، يا سيدي؛ في كلتا المرتَين.»

زمجر فالموث قائلًا: «اللعنة على «كلتا المرتَين» تلك! كم استغرقتُ من الوقت منذ غادرتُ في المرة الأولى وحتى عودتي؟»

أجاب الشرطي مُندهِشًا: «خمس دقائق، يا سيدي.»

تمتم فالموث محدِّثًا نفسه: «لقد أعطوا أنفسهم الوقت الكافي لإنجاز مهمتهم.» ثم قال جهرًا: «هل عُدتُ في سيارتي؟»

«أجل، يا سيدي.»

«آه!» بدأ الأمل يُراوِد مفتش المباحث، فتساءل، وهو يكاد يخشى سماع الإجابة: «وهل لاحظت رقمها؟»

«نعم!»

كاد المفتش يعانق الشرطي المتبلد الحس عندما سمع الإجابة.

«حَسَنٌ، وما هو؟»

«إيه ١٧١٦٤.»

دَوَّن المفتش رقم السيارة على ورقة.

نادى قائلًا: «جاكسون.» فتقدم نحوه أحد الرجال الذين كانوا يلبسون ملابس مدنيةً وأدى التحية العسكرية.

«اذهب إلى سكوتلاند يارد، واستخرج من السجلات اسم مالك هذه السيارة. وعندما تتوصَّل إلى هُويتِه اذهب إليه، واطلب منه أن يشرح لك تحركاته؛ وإن لزم الأمر فاعتقله.»

عاد فالموث أدراجه إلى مكتب السير فيليب، ووجده لا يزال يذرع الغرفة جيئة وذهابًا بانفعال شديد، والسكرتير ينقر بأصابعه بعصبية على الطاولة، والرسالة ما زالت لم تُفْتَح.

شرح فالموث قائلًا: «كما ظننت، الرجل الذي رأيتَه كان أحد الأربعة متنكرًا في هيئتي. اختار الرجل توقيته على نحو مُثير للإعجاب؛ وقد انخدع رجالي أنفسهم بمظهره. لقد تمكَّنوا من الحصول على سيارة كسيارتي تمامًا من حيث الهيكل واللون، وبعد أن تحينوا فرصتهم، توجهوا بالسيارة إلى داوننج ستريت بعد مغادرتي ببضع دقائق. أمامنا فرصة أخيرة للقبض عليه؛ لحسن الحظ، لاحظ الرقيب المنوط بالخدمة رقم اللوحات المعدنية للسيارة، وقد نتمكَّن من تتبعه عن طريق ذلك ... مرحبًا.» كان أحد الخدم واقفًا على الباب.

قال: «هل يأذن المُفتِّش بمقابلة المحقِّق جاكسون؟»

انتظر فالموث في البهو بالأسفل.

أدى جاكسون التحية العسكرية، وقال: «أستميحك عذرًا، يا سيدي، ولكن ألا يوجد خطأ في هذا الرقم؟»

سأله المفتش بحدة: «لماذا؟»

قال الرجل: «لأنَّ رقم إيه ١٧١٦٤ هو رقم اللوحات المعدنية لسيارتك.»

الفصل الثامن

مفكرة الجيب

كان التحذير الأخير مُوجَزًا ومباشرًا:

سوف نُتيح لك الفرصة حتى مساء الغد لتُعيد التفكير في موقفك من مشروع قانون تسليم الأجانب. إن لم يَظهر حتى السادسة إعلان في صحف بعد الظهر بسحبك هذا القانون، فلن يكون أمامنا سبيل نسلكه إلا تنفيذ تعهدنا. ستَلقى حتفَك في الثامنة مساءً. من أجل إحاطتك علمًا أرفقنا جدولًا دقيقًا بالترتيبات التي اتَّخذتها الشرطة السرية لتأمين سلامتك غدًا. وداعًا.

توقيع
رجال العدالة الأربعة

اطَّلَع السير فيليب على هذا التحذير دون أن يرتجف. واطلَع أيضًا على قصاصة الورق التي كان مكتوبًا فيها، بخطٍّ يد أجنبية، التفاصيل التي لم تَجرُؤ الشرطة على تدوينها كتابةً.

قال: «ثمة ثغرة في موضع ما.» ولاحظ الاثنان اللذان كانا يراقبانه بقلق أن الشحوب والإرهاق قد حلَّا على وجهِه.

قال المفتِّش بهدوء: «هذه التفاصيل لم تكن معلومة إلا لأربعة أشخاص، وأنا على استعداد لأن أراهن بحياتي على أن التسريب لم يكن من عندي ولا من عند مفوض الشرطة.»

قال السكرتير الخاص بطريقة قاطعة: «ولا من عندي.»

هز السير فيليب كتفَيه وضحك ضحكةً مُتعَبةً.

صاح قائلًا: «ما أهمية ذلك الآن؟ إنهم يعرفون؛ لا أعرف بأي وسيلة عجيبة عرفوا ولا يهمني أن أعرف. السؤال المُهم هو هل يُمكن تأمين حماية كافية لي في الساعة الثامنة من ليلة غد؟»

أطبق فالموث أسنانه كاظمًا غيظه.

قال: «إما أن تخرج من هذه المحنة حيًّا، أو بحق الرب سيقتلوننَا أنا وأنت.» وظهر في عينيه بريق ينمُّ عن تصميمه.

بحلول الساعة العاشرة كان قد انتشر في الشوارع خبر وصول رسالة أخرى إلى رجل الدولة العظيم. وتداوَل الخبرَ مُرتادو الأندية والمسارح، وبين فصول المسرحيات وقف الرجال في الأروقة، والجدِّية تَكسو ملامحهم، يتناقشون بشأن الخطر المحدق برامون. كان مجلس العموم محتدمًا بالانفعال. كان أعضاء البرلمان قد احتشدوا بقوة، على أمل أن يأتي الوزير، لكن أملهم خاب؛ لأنه بعد استراحة العشاء كان من الواضح أن السير فيليب لم تكن لديه النيَّة في الظهور في تلك الليلة.

تساءل نائب ويست ديبتفورد الراديكالي: «هل يَسمح لي معالي رئيس الوزراء أن أسأل هل في نية حكومة صاحب الجلالة أن تَمضي قُدُمًا في مشروع قانون تسليم الأجانب (الجرائم السياسية)؟ وهل فكر معاليه في أنه من الأصوب تأجيل إصدار هذا القانون، في ظل الظروف الاستثنائية التي أدَّى إليها مشروع القانون؟»

قوبل السؤال بهتاف موافقة من أعضاء المجلس «موافقون، موافقون!» ووقف رئيس الوزراء ببطء وألقى نظرة سريعة على السائل وابتسم.

قال: «لا علم لي بظرف يُمكن أن يمنع صديقي معالي وزير الخارجية، الذي مع الأسف ليس حاضرًا الليلة، من الإشراف على العرض الثاني لمشروع القانون غدًا.» وبعد ذلك جلس.

بتبرمٍ قال نائب ويست ديبتفورد، مُخاطبًا نائبًا جالسًا بجواره: «لماذا، بحق الشيطان، كان يَبتسم؟»

قال النائب الآخر بحكمة: «إن جيه كيه مُنزعج جدًّا، منزعج جدًّا؛ أخبرني عضو في الحكومة اليوم أن جيه كيه العجوز كان يشعر بانزعاج شديد. قال: «تذكر جيدًا ما أقوله. إن مسألة رجال العدالة الأربعة هذه تُسبِّب انزعاجًا شديدًا لرئيس الوزراء».» وسكت العضو المبجل ليتيح لنائب ويست ديبتفورد أن يستوعب مكنون صدر جاره.

كان رئيس الوزراء يقول: «لقد بذلت قصارى ما في وُسعي لإقناع رامون بسحب مشروع القانون، لكنه عنيد، وما يَدعو للأسى أنه موقن في أعماق قلبه أن هؤلاء الرجال ينوون الاستمرار في الولاء له ومُساندته.»

قال وزير المستعمرات بحماسة: «هذا فظيع؛ لا يُمكن تصوُّر أن موقفًا كهذا يمكن أن يستمر. يا إلهي، إنه يضرب في صميم كل شيء، ويُخلُّ بتوازُن كل إصلاح حضاري.»

قال رئيس الوزراء الرابط الجأش: «إنها فكرة شاعِرية، ووجهة نظر الأربعة منطقية جدًّا. فَكِّر في القدرة الهائلة على فعل الخير أو الشر التي عادةً ما تُمْنَح لرجل واحد: رأسمالي يتحكم في أسواق العالم، مُضارِب يَحتكِر القطن أو القمح بينما المطاحن معطلة والناس يتضوَّرون جوعًا، طغاة ومستبدون يتحكمون في مصائر أمم؛ ثم فَكِّر في الرجال الأربعة، الذين لا يعرفهم أحد؛ شخوص غامضون مُبهَمون يُطارِدون — بطريقة مأساوية عبر العالم — الرأسمالي، والمُحتَكِر، والطاغية، ويَدينونهم ويُنفِّذون فيهم حكم الإعدام؛ قوى الشر كلها، وكل من لا تنالهم يد القانون. لقد قلنا، نحن وأمثالنا ممَّن هم متأثِّرون بالأمور الروحانية، عن هؤلاء الناس إن الرب سيدينهم. ها هم رجالٌ يُخَوِّلون لأنفسهم الحق الإلهي في الدينونة السامية. إن أمسكنا بهم فسيقتلون أنفسهم بطريقة مُفجِعة، بأسلوب مبتذل في عريش صغير في سجن بينتونفيل، ولن يدرك العالم أبدًا مدى عظمة هؤلاء المبدِعين الذين قضوا نَحبَهم.»

«لكن ماذا عن رامون؟»

ابتسم رئيس الوزراء.

«في تلك الحالة، أظن أن هؤلاء الرجال قد أقدموا على أمر يفوق قدراتهم. لا يُساوِرُني شكٌّ في أن رامون كان سيَلقى حتفه لو أنهم ارتضوا بأن يقتلوا أولًا وبعد ذلك يُوضِّحُون مُهمتهم. لكنهم أرسلوا التحذير تلو التحذير وكشفوا عن أوراقهم عشرات المرات. لا علم لي بالترتيبات التي تتَّخذها الشرطة، لكنني أتخيَّل أن الاقتراب مسافة عشر ياردات من رامون سيكون في صعوبة تناول سجين سيبيري العشاء مع القيصر الروسي.»

تساءل وزير المستعمرات: «هل يوجد أيُّ احتمال أن يسحب رامون مشروع القانون؟»

هز رئيس الوزراء رأسه نفيًا.

وقال: «لا يُوجد أيُّ احتمال إطلاقًا.»

قطع حديثهما نهوض أحد نواب الجبهة الأمامية للمعارضة في تلك اللحظة لطرح تعديل لبند للمناقشة.

خلت قاعة البرلمان سريعًا من النواب عندما شاع أن رامون لم يكن يَنتوي الحضور، وتجمع الأعضاء في حجرة التدخين والبهو ليتكهَّنُوا بشأن المسألة التي كان لها الصدارة في أذهانهم.

على مقربة من بالاس يارد كان حشد كبير قد تجمع، مثلما تتجمَّع الحشود في لندن، اعتمادًا على احتمال ضئيل في إلقاء نظرة خاطفة على الرجل الذي تداولت الألسنة كلها اسمه. عرض باعة الشوارع صورته للبيع، وراجت تجارة الرجال ذوي الأسمال البالية الذين أشاعوا قصصًا ملفقةً عن حياة رجال العدالة الأربعة ومُغامراتهم، وتغنَّى مُطربو الشوارع المتجولون بشجاعة رجل الدولة الجسور، الذي جرؤ على مقاومة تهديدات الأجانب الجبناء والأناركيِّين المُخرِّبين، بأنها شجاعة جسورة، وأدخلوا أشعارًا مرتجلةً ضمن ذخيرتهم الفنية.

احتوت هذه الأشعار الغنائية الرديئة مديحًا للسير فيليب، الذي كان يُحاول منع الأجانب من أخذ لقمة الخبز من أفواه العمال الشرفاء.

راقت طرافة تلك الأشعار كثيرًا لمانفريد، الذي كان يستقلُّ سيارة أجرة مع بويكارت إلى نهاية طريق وستمنستر على الكورنيش، وبعد أن ترجَّلا من السيارة الأجرة، سارا في اتجاه شارع وايتهول.

قال مانفريد، مطلقًا ضحكة مكتومة: «أظن أن المقطع الذي يتناول أخذ «الأناركيين الأجانب المُخرِّبين» لقمة الخبز من فم عامة الشعب جيد على نحو واضح.»

كان الرجلان يَرتديان ملابس سهرة، ووضع بوايكارت في عروته الشارة الحريرية لوسام جوقة الشرف الفرنسي.

تابع مانفريد قائلًا:

«لا أظن أن لندن شهدت مثل هذه الإثارة منذ. منذ متى؟»

لفتَت ابتسامة بويكارت المتجهِّمة انتباه مانفريد فابتسم في تعاطف.

وسأله: «حسنًا، ما قولك؟»

قال ببطء، بطريقة رجل لا يرغب في تبادُل المزاح: «وجهت السؤال نفسه إلى رئيس النُّدُل؛ كان يُقارن بين التحريض وجرائم القتل البشعة في إيست إند.»

فجأة توقَّف مانفريد عن السير ونظر برعب إلى رفيقه.

صاح في تفجُّع: «يا إلهي! لم يَخطر ببالي مُطلَقًا أن نُقارَن، به!»

بعدئذٍ تابعا سيرهما.

قال بويكارت بهدوء: «هذا جزء من حضيض أبدي؛ فحتى دي كوينسي لم يُعَلِّم الإنجليز شيئًا. إن جماعة «إله العدالة» ليس لها إلا مُمثِّل واحد هنا، وهو يقطن في نُزُل في لانكشير، وهو خبير وتلميذ بارع للمأسوف عليه مارووود، الذي أدخل تحسينات على نظامه.»

كانا يجتازان ذلك الجزء من شارع وايتهول الذي تُدار منه سكوتلاند يارد.

نظر رجل، يسير مُتراخيًا محنيَّ الرأس ويدَاه في جيوب معطفه، إليهما نظرة جانبية سريعة، وتوقَّف عندما تَجاوزاه، ونظر إليهما وهما يسيران أمامه. ثم استدار وسار حثيثًا في إثرهما. عندما وصل مانفريد وبويكارت إلى تقاطع شارع كوكسبر، أدَّى وجودُ حشدٍ من المارة وسيل من السيارات بدا أنه لا يتوقَّف إلى توقُّفِهما عن السير مُنتظرين فرصة لعبور الطريق. تعرَّضا لبعض التدافع مع ازدياد عدد المارة المُنتظرين، ولكن أخيرًا عبرا الطريق وسارا صوب شارع سان مارتِن.

كانت المقارنة التي ذكرها بويكارت لا تزال تشعل غضب مانفريد.

قال: «سيكون موجودًا في المسرح الملكي الليلة أشخاص يصفقون لبروتوس وهو يسأل: «أي وغد شرير ممَّن طعَن يوليوس مسَّ جسده من أجل شيء سوى العدالة؟» لن تجد دارسًا جادًّا للتاريخ، أو رجلًا عاديًّا نابهًا، إن سألته «أما كان ستغدو بركة من الرب على العالم لو أن بونابرت اغتيل أثناء عودته من مصر؟» إلا ويُجيبك دون تردُّد «نعم، ولكن نحن. نحن قتلة!»

قال بويكارت ببساطة: «ما كانوا سيَنصبُون تمثالًا لقاتل نابليون مثلما لم يُظهِرُوا إجلالًا لفيلتون، الذي أزهق رُوح وزير سفيه وفاسق من وزراء تشارلز الأول. ربما تنصفنا الأجيال القادمة.» قال الجملة الأخيرة ببعض السخرية، وأضاف: «عن نفسي تكفيني راحة الضمير.»

ألقى السيجار الذي كان يُدَخِّنه، ووضع يده في الجيب الداخلي لمعطفه ليتناول آخر. لكنه أخرج يده دون السيجار وصَفَّر ليستوقف عربة أجرة.

نظر مانفريد إليه مُندهشًا.

«ما الأمر؟ لقد ظننت أنك قلت إنك ستذهب سيرًا على الأقدام؟»

مع ذلك دخل مقصورة العربة التي تجرُّها الخيول وتبعه بويكارت، قائلًا لسائق العربة عبر الحاجز: «محطة بيكر ستريت.»

أخذت عربة الأجرة تقعقع وهو تسير عبر شارع شافتسبيري قبل أن يقدم بويكارت تفسيرًا.

قال، مُخفِّضًا صوته: «لقد سُرِقت، ساعتي نُشِلَت، ولكن ذلك لا يهم؛ سُرِقت مفكرة الجيب التي فيها الملاحظات التي دونتُها إرشادًا لتيري؛ وهي ذات أهمية كبيرة.»

قال مانفريد: «ربما كان من فعل ذلك لصًّا عاديًّا؛ فقد سرق الساعة.»

أخذ بويكارت يتحسَّس جيوبه بسرعة.

قال: «لم يُسرَق أي شيء آخر؛ ربما كان الأمر كما قلت، مجرد نشال، سيسعد بالساعة ويلقي بالمفكرة في أقرب بالوعة؛ ولكن ربما يكون من أفراد الشرطة.»

سأله مانفريد، بنبرة قلقة: «هل كان فيها أي شيء يدلُّ على هُويتك؟»

أجاب بسرعة: «لا شيء؛ ولكن، ما لم يكن رجال الشرطة عميانًا، فسيفهمون الحسابات والخطط المكتوبة فيها. ربما لا تصل إلى أيديهم أبدًا، ولكن إن حدث ذلك وكان بوسع اللص أن يتعرف علينا فسنُصبح في ورطة.»

توقَّفت العربة عند محطة بيكر ستريت، ونزل منها الرجلان.

قال بويكارت: «سأتوجَّه شرقًا، وسنَلتقي في الصباح. بحلول ذلك الوقت سأكون قد عرفت ما إذا كانت المفكرة قد وصلت إلى حوزة سكوتلاند يارد أم لا. طابت ليلتك.»

ودون عبارات وداع أخرى أكثر من هذه افترق الرجلان.

لو لم يكن بيلي ماركس قد شرب الخمر كان سيُصبحُ راضيًا تمامًا بحصيلة عمله تلك الليلة. ولكن إذ كان ممتلئًا بالثقة الزائفة التي تمدُّ بها الخمر شاربيها والتي تحيد بالكثير من الرجال الصالحين عن الصواب، فكَّر بيلي في نفسه أنها ستكون خطيئة أن يتجاهل الفرص التي أتاحتها له الآلهة. كانت الإثارة الناشئة عن تهديدات رجال العدالة الأربعة قد جلبَت الكثير من سكان جميع ضواحي لندن إلى وستمنستر، وعلى ناحية سَري من الجسر وجد بيلي مئات من سكان الضَّواحي ينتظرون بصبر وسيلة مواصلات تُقلهم إلى ستريتهام، وكامبرويل، وكلافام، وجرينيتش.

وهكذا، وإذ كان الليل لا يزال نسبيًّا في أوله، قرَّر بيلي أن يباشر عمله في الترام.

نشل كيس نقود من سيدة عجوز بدينة متَّشحة بالسواد، وساعة ووتربيري من سيد يرتدي قبعة مُرتفعة، ومرآة يد من حقيبة أنيقة، وقرر أن يختم عملياته باستكشاف محتويات جيب سيدة شابَّة راقية.

تكلَّل بحثُه بالنجاح. وكانت مكافأته كيس نقود ومنديلًا حريريًّا مطرزًّا بالدانتيل، واتخذ ترتيبات للانسحاب في هدوء. عندئذ سمع صوتًا يَهمِس في أذنه. «مرحبًا، يا بيلي!»

عرف الصوت، وشعر للحظة أنه ليس على ما يُرام.

صاح في ابتهاج زائف: «مرحبًا، يا سيد هوارد؛ كيف حالك يا سيدي؟ إنها مُفاجأة أن ألتقي بك!»

سأله السيد هوارد بلطف، مُمسكًا بذراعه بقوة: «إلى أين أنت ذاهب يا بيلي؟»

قال بيلي مُتظاهرًا بالاستقامة: «إلى البيت.»

قال السيد هوارد، وهو يَقتاد بيلي خارج الزحام: «إلى البيت إذن؛ إلى البيت الجميل المريح إذن يا بيلي.» نادى على رجل شاب آخر، بدا أنه يعرفه: «اصعد إلى هذه العربة، يا بورتر، واسأل الركاب إن كان أحدهم قد ضاع منه شيء. إن استطعت أن تجد أيَّ أحد فأحضره.» وأطاع الشاب الآخَر أمره.

قال السيد هوارد، وهو لا يَزال مُمسكًا بذراع بيلي بقوة: «والآن أخبرني عن حال الدنيا معك.»

قال بيلي بجدية: «اسمع يا سيد هوارد، ما قصدك؟ إلى أين تَمضي بي؟»

قال السيد هوارد بحزن: «قصدي أنت تعرفه منذ أمد، نفس القصد القديم، يا بيل، وسأمضي بك إلى نفس البُقعة القديمة الجميلة.»

صاح بيلي بعنف، وكان ثمة صوت رَنَّة خفيفة لشيء يسقط على الأرض: «أنت مُخطئ هذه المرة، يا زعيم!»

قال السيد هوارد، مُنحنيًا على الأرض ليَلتقِط كيس النقود الذي أسقطه بيلي: «اسمح لي يا بيلي.»

في قسم الشرطة تظاهَر الرقيب المناوب الجالس على مكتبه بالفرح العظيم لوصول بيلي، وألقى السجَّان، الذي زجَّ ببيلي إلى قفص ذي قضبان فولاذية، عليه التحية كأنه صديق.

قال السجَّان: «ساعة ذهبية، نصف سلسلة ذهبية، ثلاثة أكياس نقود، منديلان، مُفكِّرة جيب ذات غلاف جلدي مراكشي أحمر.»

أومأ الرقيب مُصدِّقًا على ما ذكر.

قال: «يا لها من حصيلة عمل يوم طيبة، يا ويليام.»

تساءل السجين: «ما العقوبة التي سأنالها هذه المرة؟» فقال السيد هوارد، الذي كان شرطيًّا في ملابس مدنية، وهو مُنشغِل في ملء تفاصيل التُّهمة، إنه يظنُّ أنها ستكون تسعة أشهر.

هتف السيد بيلي ماركس في ارتياع: «هذا سخف وجنون!»

قال الرقيب: «بل حقيقة؛ فأنت مُجرم شقي ومُتشرِّد، يا بيلي؛ أنت نشال، وستذهب إلى المحاكمة هذه المرة. الزنزانة رقم ثمانية.»

كانت العبارة الأخيرة موجَّهة إلى السجَّان، الذي اقتاد بيلي إلى الزنازين وهو يحتجُّ على قوة الشرطة التي لا تَستطيع إلا أن تقبضَ على الرجال البائسين، ولم تَستطِع أن تصل إلى قتلة دمويين مثل رجال العدالة الأربعة.

تساءل بيلي بسخط من وراء قضبان زنزانته: «من أجل ماذا ندفع الرسوم والضرائب؟»

قال السجَّان، وهو يَضع قفلًا مزدوجًا على الباب: «أنت لا تدفع أيَّ رسوم أو ضرائب يا بيلي.»

في مكتب الضابط المناوب كان السيد هوارد والرقيب يفحصان المسروقات، وكان ثلاثة من أصحابها، هم الذين اكتشفهم بي سي بورتر، يطالبون بممتلكاتهم.

قال الرقيب بعد انصراف المطالبين بأشيائهم المسروقة: «بذلك تعود كل الأغراض إلى أصحابها عدا الساعة الذهبية ومُفكِّرة الجيب. ساعة ذهبية من طراز إلجين رقم إن ٠٥٠٢٩٠٢٠، ومُفكِّرة جيب لا تحتوي على أوراق ولا بطاقة ولا عنوان، فقط ثلاث صفحات مكتوبة. لا أَعرف ما الذي يَعنيه هذا.» أعطى الرقيب المُفكِّرة إلى هوارد. احتوَت الصفحة التي حيَّرت الشُّرطي على مجرد قائمة بأسماء شوارع. أمام اسم كل شارع كان ثمَّة رموز غير مفهومة.

قال السيد هوارد: «تبدو مثل مذكرات تَعتمِد على إسنادات ترافُقية. ماذا يوجد في الصفحتَين الأُخريَين؟» قلبا الصفحة، فوجداها مملوءة بأشكال.

قال الرقيب شاعرًا بخيبة أمل: «حسنًا.» وقلب الصفحة. كانت مُحتويات هذه الصفحة مفهومة ومقروءة غير أنه كان من الواضح أنها كُتِبَت على عجل وكأن من كتبها كان يَكتب ما يُملَى عليه.

قال السيد هوارد بخفَّة ظل، مُشيرًا إلى الاختصارات: «لا بدَّ أن الشخص الذي كتب هذا كان يريد اللحاق بقطار.»

لن يَترك دي سي إلا إلى إتش إس. سيعود بالسيارة إلى إتش إس في إم سي. (تسبقه أربع مركبات)، ٨:٣٠. في ٢ ٦٠٠ بي يصلُ المَوكِب إلى الحاجز، ٨٠ شخ(صًا) داخل دي إس. واحد كل غر(فة)، ثلاثة كل م(مر)، ستة أق(بية)، ستة سط(وح). كل الأبواب مفتوحة على اتساعها تتيح لكل شر(طي) أن يرى

آخر، كل شخ(ص) سيحمل مسد(سًا). لا أحد إلا إف وإتش يمكنه أن يقترب من آر في إتش إس إي. غريب مملوء. كل الصحافة مكفول لها ٢٠٠ شخ(ص) في الم(مرات). فرقة حرس رهن الإشارة عند الحاجة إليها.

قرأ رجل الشرطة هذا ببطء.

تساءل الرقيب بعجز: «والآن ماذا يعني ذلك بحق الشيطان؟»

في هذه اللحظة تحديدًا استحق الشرطي هوارد ترقيته.

قال بحماس: «دعني آخذ المفكِّرة مدة عشر دقائق.» سلمه الرقيب المفكرة وعلى وجهه نظرة تعجب.

قال هوارد، ويدُه تَرتجِف وهو ينظر إلى المفكرة: «أظن أنني أستطيع أن أجد صاحب هذه المفكرة.» ووضع القبعة على رأسه وخرج مهرولًا إلى الشارع.

لم يتوقف عن الجري حتى وصَل إلى الطريق الرئيس، وبعدما عثر على عربة أجرة قفز فيها ووجَّه أمرًا مُتعجِّلًا إلى السائق.

قال له: «وايتهول، وانطلَقَ بأقصى سرعة.» وفي غضون بضع دقائق كان يشرح مهمته للمفتش المسئول عن الطوق الذي كان يحرس مدخل داوننج ستريت.

قدم نفسه قائلًا: «الشرطي هوارد، ٩٤٦ إل احتياط.» لديَّ رسالة مهمة جدًّا للمفتش فالموث.»

استمع ذلك الضابط، الذي كان باديًا عليه الإجهاد والتعب، إلى قصة الشرطي.

مضى هوارد يقول سريعًا: «يبدو لي كما لو أن هذا له علاقة ما بقضيتك، يا سيدي. دي إس هو داوننج ستريت، و...» وأخرج المفكرة فاختطفها منه فالموث.

قرأ بضع كلمات ثم أطلَقَ صيحة مُنتصِرة.

صاح، وهو يقبض على ذراع الشرطي ويَقتاده إلى بهوِ المدخل: «ها هي التعليمات السرية.»

سأل: «هل سيارتي بالخارج؟» واستجابةً إلى صافرة اقتربت سيارة. قال المفتِّش: «اركب يا هوارد.» وانطلقت السيارة في شارع وايتهول.

تساءل المفتِّش: «من هو اللص؟»

أجاب هوارد: «بيلي ماركس، يا سيدي؛ قد لا تعرفه، لكنه شخصية معروفة في حي لامبث.»

أسرع فالموث مُصححًا: «أوه، أجل، إنني أعرف بيلي تمام المعرفة بالفعل. سنرى ما لديه من أقوال.»

توقفت السيارة أمام قسم الشرطة وقفَزَ الرجلان منها.

هب الرقيب واقفًا عندما تعرف على فالموث الشهير، ورفع يده بالتحية العسكرية.

قال فالموث باقتِضاب: «أريد أن أرى السجين بيلي.» وبعد أن أقامُوا بيلي من رقدته، جاء يرمش إلى مكتب الضابط المناوب.

قال المفتِّش: «والآن يا بيلي، لديَّ بضع كلمات أريد أن أقولها لك.»

قال بيلي مُندهشًا: «عجبًا، إنه السيد فالموث.» واكتسى وجهه بشيء كالخوف. «لم أكن مشاركًا في حادث السطو على محلات هوكستون تلك، وليُساعدني الرب.»

«هدئ من روعك يا بيلي؛ فأنا لا أريدك من أجل أي شيء، وإن أجبت بصدق على أسئلتي، فقد تُبرَّأ من التُّهمة الحالية وتَحصُل على مكافأة علاوة على ذلك.»

راودَت بيلي شكوك فيما قيل له.

قال بتجهُّم: «لن أشي بأيِّ أحد إن كان ذلك ما تعنيه.»

قال المفتش بنفادِ صبر: «ولا هذا أيضًا. أريد أن أعرف أين وجدت هذه المفكرة.» وأمسك بها يُريه إياها.

ابتسم بيلي.

قال كاذبًا: «عثرت عليها على الرصيف.»

قال فالموث بصوت هادر: «أريد الحقيقة.»

أجاب بيلي بعبوس: «حسنًا، لقد نشلتُها.»

«ممَّن؟»

أجاب بصفاقة: «لم أوقفه لأسأله عن اسمه.»

تنفَّس المفتِّش بعمق كاظمًا غيظه.

قال، مخفضًا صوته: «اسمع، لا بد أنك سمعت عن رجال العدالة الأربعة، أليس كذلك؟»

أومأ بيلي برأسه، واتَّسعت عيناه في ذهول من السؤال.

صاح فالموث بصوت مؤثر: «حسنًا، هذه المُفكِّرة ملك واحد منهم.»

صاح بيلي: «ماذا؟»

«توجد مكافأة ألف جنيه نظير الإمساك به. إن قادت الأوصاف التي ستدلي بها إلى القبض عليه فستكون الألف جنيه تلك من نصيبك.»

صُعِق مارك من الفكرة.

تمتم في ذهول: «ألف. ألف جنيه، وربما كان بوُسعي أن أمسك به.»

صاح المفتش بحدة: «هيا، هيا! ربما ما زال بوسعك أن تُمسِك به؛ قل لنا ما شكله.»

قطب بيلي جبينَه مفكرًا.

قال، محاولًا أن يستحضر صورة ضحيته من خضم ما في ذهنه: «كان يبدو من السادة؛ كان يرتدي صدرية بيضاء، وقميصًا أبيض، وحذاءً لامعًا.»

تساءل المفتش: «ولكن وجهه، ماذا عن وجهه؟!»

صاح بيلي بسخط: «وجهه؟ أَنَّى لِي أن أعرف شكله؟ أنا لا أنظر إلى وجه الشخص عندما أنشله، أليس كذلك؟»

الفصل التاسع

جشع ماركس

صاح المفتش بصوت هادِر، ممسكًا بخناق بيلي، وهو يَنفضه كالجرذ: «أيها الأبله اللعين، أيها الأحمق المنبوذ! أتقصد أن تُخبرني أن واحدًا من رجال العدالة الأربعة كان في قبضتك، ولم تُكلف نفسك حتى عناء النظر إلى وجهه؟»

حرَّر بيلي نفسه من قبضة المفتِّش.

قال بتحدٍّ: «لا شأنَ لك بي! كيف كنتُ سأَعرف أنه واحد من رجال العدالة الأربعة؟» وأضاف بنظرة ماكرة: «بل كيف يُمكنك أنت أن تعرف أنه كان واحدًا منهم؟» بدأ ذهن بيلي يعمل بسرعة. رأى في عبارة المُفتِّش فرصة سانحة لاستغلال الموقف الذي كان منذ بضع دقائق يَعتبره موقفًا سيئًا للغاية.

قال: «لقد ألقيتُ بالفعل نظرة خاطفة على وجهه. لقد كانا ...»

قال المفتِّش بسرعة: «هما، كانا؟ أكانا رجلين؟»

قال بيلي بعبوس: «دعْك من الأمر.» كان قد شعر بقوة مَوقِفه.

قال المفتِّش بتلهُّف: «بيلي، إنني جاد فيما أقول؛ إن كنت تعرف أي شيء فلا بد أن تخبرنا!»

صاح السجين في تحدٍّ: «ها! لا بد؟ حسنًا، أنا أعرف الرب مثلما تعرفه، لا يُمكنك أن تجبر أحدًا على أن يتكلَّم إذا لم يكن يرغب في ذلك. لا يُمكنك.»

أشار المفتِّش إلى الشرطيِّين الآخرين بالمغادَرة، وعندما أصبحا بعيدًا عن نطاق السمع أخفض صوته وقال:

«لقد خرج هاري موس من السجن الأسبوع الماضي.»

احْمَرَّ وجه بيلي وخفض بصره.

تمتم بعناد: «لا أعرف أحدًا يُدعى هاري موس.»

تابع المفتِّش باقتضاب: «خرج هاري موس من السجن الأسبوع الماضي بعد أن أمضى عقوبة السجن ثلاث سنوات بتُهمة السرقة بالإكراه. ثلاث سنوات وعشر جلدات.»

قال ماركس بنبرة الصوت نفسها: «لا أَعرِف شيئًا عن الأمر.»

تابع المفتِّش بقسوة: «لقد نجَحَ في الهرب ولم تعثر الشرطة على أيِّ أدلة، وكان من المُمكِن ألا يُقْبَض عليه حتى يومنا هذا، ولم يُقْبَض عليه إلا. إلا «بناءً على معلومات تلقتْها الشرطة من مجهول.» وأخذُوه في إحدى الليالي من فراشِه في شارع ليمان.»

بلَّل بيلي شفتَيه الجافتَين، لكنه لم يَنبِس ببنت شفة.

«إن هاري موس يود أن يعرف إلى من يدين بالثلاث السنوات التي أمضاها في السجن، والرجال العشرة الذين أمسكوا بالرجل لديهم ذاكرة طويلة المدى، يا بيلي.»

صاح بيلي بغلظة: «ليس ذلك هو المتوقع منكم، يا سيد فالموث. لقد كنت نوعًا ما أمرُّ بضائقة مالية، ولم يكن هاري موس صديقًا لي، وأرادت الشرطة أن تَكتشِف هُوية ...»

قال فالموث: «والشرطة الآن تُريد أن تَكتشِف هوية المجرمين.»

ظل بيلي ماركس صامتًا برهةً دون أن يجيب.

وأخيرًا قال: «سأُخبرُك بكل ما أعرفه.» وتَنحنَح. لكن المفتش جعله يتوقف عن الكلام.

قال: «ليس هنا.» ثم التفَتَ إلى الضابط المناوب قائلًا:

«أيها الرقيب، يُمكنك أن تُطلِق سراح هذا الرجل مؤقتًا؛ وأنا سأَضمنه.» يبدو أن الجانب الفُكاهي في هذا الأمر راق لبيلي؛ إذ ابتسمَ بخجلٍ واستعاد مزاجه السابق.

عَلَّق مازحًا: «هذه أول مرَّة يُطْلَق فيها سراحي بضمانة الشرطة.»

ركب المفتش وبيلي السيارة وانطلقت بهما إلى سكوتلاند يارد، وفي مكتب مفتش المباحث فالموث استعدَّ بيلي للإدلاء بما عنده.

قال فالموث: «قبل أن تبدأ، أريد أن أُنبِّهك إلى أن توجز في حديثك قدر الإمكان. فكل دقيقة تمر لها قيمتها.»

وهكذا حكى بيلي قصته. وعلى الرغم من تنبيه فالموث، كان ثمة تفصيلات لا علاقة لها بالأمر، أُجْبِر المفتش على أن يستمع إليها في نفاد صبر.

وأخيرًا وصل النشال إلى مقصد الحديث.

«كانا رجلين، أحدهما طويل القامة والآخر لم يكن طويلًا للغاية. سمعت أحدهما يقول للآخر: «عزيزي جورج.» كان القصير هو من قال ذلك، وهو الذي نُشلت منه الساعة ومفكِّرة الجيب.» وتساءل بيلي فجأة: «هل كان يوجد أي شيء في المفكرة؟»

قال المفتش: «تابِع حديثك.»

تابع بيلي قائلًا: «حسنًا، تتبَّعتهما حتى نهاية الشارع، وعندما كانا ينتظران لعبور الشارع نحو طريق شيرنج كروس، نُشلت الساعة، أتفهَم؟»

«كم كانت الساعة حينئذٍ؟»

«العاشرة والنصف. أو ربما كانت الحادية عشرة.»

«ولم ترَ وجهَيهما؟»

هز رأسه نفيًا بتأكيد قاطع.

قال بجدية: «أقسم بحياتي، يا سيد فالموث، إنَّني لم أفعل.»

نهض المفتِّش واقفًا وهو يتنهَّد.

قال بتأسُّف: «يُؤسفني أن أقول إنك لم تُفِدني بشيء يا بيلي. ألم تلاحظ إن كنا مُلتحيَين أو حليقَي الذَّقن، أو ...»

هز بيلي رأسه نفيًا بأسًى.

قال بصراحة: «كان في مقدوري بسهولة أن أكذب عليك، يا سيد فالموث، وكان بمقدوري أن أخترع قصة وكنت ستنخدع بها، ولكنِّي صريح معك.»

أدرك المفتش صدق الرجل وأومأ برأسه.

قال: «لقد فعلت قصارى ما في وسعك. سأقول لك ما سوف أفعله. أنت الرجل الوحيد في العالم الذي رأى أحد رجال العدالة الأربعة، وبقيَ على قيد الحياة ليَروي ما حدث. ومع أنك لا تَستطيع أن تتذكَّر وجهَه، فمِن المُحتمَل إن التقيت به مجددًا في الشارع أن تتعرَّف عليه؛ فقد تكون له مِشية مُميِّزة، أو عادة معيَّنة في حركات يديه لا يُمكنك أن تتذكَّرها الآن، ولكن إن رأيته ثانيةً فقد تُميِّزها. لذلك سأتحمل مسئولية إطلاق سراحك من الحجز حتى يوم بعد غد. أريد منك أن تعثر على هذا الرجل الذي نشلته. ها هو جنيه ذهبي؛ عد إلى البيت، وخذ قسطًا من النوم، واستيقظ مبكرًا قدر الإمكان واذهب إلى الجهة الغربية من المدينة.» ثم توجه المفتش إلى مكتبه، وكتب بعض الكلمات على بطاقة. ثم قال: «خذ هذه؛ إن رأيت الرجل أو رفيقه، فاقتفِ أثرهما، وأظهر هذه البطاقة لأول شرطي تُقابله، ودُلَّه على الرجل، وسوف تعود إلى فراشك ومعك ألف جنيه.»

أخذ بيلي منه البطاقة.

«إن أردت مُقابلتي في أي وقت فستجد أحدًا هنا يعرف مكاني. طابت ليلتك.» وخرج بيلي إلى الشارع، وعقلُه يعجُّ بالأفكار، وفي جيب صدريتِه تصريح مكتوب على بطاقة زيارة.

أشرَقَ صباح اليوم الذي كان مُزمعًا أن تشهد فيه لندن فيه أحداثًا عظيمة، صحوًا وساطعًا على لندن. راقب مانفريد، الذي كان، على خلاف عادته، قد أمضى ليلته في الورشة في شارع كارنابي، بزوغ الفجر من سطح المبنى المُنبسِط.

كان راقدًا على الأرض، وتحته سجادة، ورأسه مُستقرٌّ على يدَيه. كشف الفجر، بضوئه الأبيض الشديد، عن وجهِه القَوي، مُجعَّدًا ومنهكًا. اتضحت الخصلات البيضاء للحيته المشذبة في ضوء الصباح. بدا متعبًا وواهن العزم، على عكس طبيعته المعتادة؛ حتى إن جونزاليس، الذي انسلَّ صاعدًا عبر الباب السحري قبل شروق الشمس مباشرةً، كان مُنزعجًا بقدر ما يُمكن لذلك الرجل الرابط الجأش أن يكون. مَسَّ جونزاليس ذراعَه فجفَل.

سأله ليون برقة: «ما الأمر؟»

لم تُهدِّئ ابتسامة مانفريد وهزُّه لرأسه من روع السائل.

«أهي مسألة بويكارت واللص؟»

أومأ مانفريد برأسه إيجابًا، وقال: «أجل.» ثم تكلم بصوت مسموع متسائلًا: «هل شعرت من قبل في أي من الوقائع السابقة بما تشعر به في هذه؟»

تحدثا بصوت مُنخفِض يكاد يصل إلى الهمس. وحدَّق جونزاليس أمامه مفكرًا.

اعترف قائلًا: «أجل، مرةً واحدةً، في واقعة المرأة في وارسو. تذكر كيف بدت الأمور كلها، والظروف السيئة التي تتابَعَت وأعاقتنا، حتى بدأت أشعر، كما أشعر الآن، بأننا لا بد أن نفشل.»

قال مانفريد بقوة: «لا، لا، لا. يجب ألا يكون ثمَّة ذكر للفشل، يا ليون، ولا أن نُفكِّر فيه.»

زحف إلى الباب السحري وهبط إلى الممر، وتبعه جونزاليس.

تساءل: «أين تيري؟»

«نائم.»

كان يدلفان إلى الاستوديو، وكان مانفريد مُمسكًا بمقبض الباب عندما سمعا صوت وقع أقدام في الطابق السفلي.

صاح مانفريد: «من هناك؟» فسمع صوت صافرة جعله يهبط درجات السلم إلى أسفل ركضًا.

صاح: «إنه بويكارت!»

كان بويكارت بالفعل، مقبلًا بذقن غير حليقة، ومغبرًّا، ومنهكًا.

تساءل مانفريد: «ما الخبر؟» وكاد هتافه أن يكون عنيفًا بقدر فظاظته.

قال بويكارت باقتضاب: «دعنا نصعد إلى الأعلى.» صعد الرجال الثلاثة على درجات السلَّم المُترِبة، ولم يتلفظوا بكلمة حتى وصلوا إلى غرفة المعيشة الصغيرة.

بعدها تكلم بويكارت:

قال، وهو يُلقي بجسده على الكرسي الوحيد المريح في الغرفة، وألقى بقبَّعته في أحد الجوانب: «إن نجوم السماء نفسها في عليائها تُحاربنا. لقد قبضت الشرطة على الرجل الذي سرق مُفكِّرة جيبي. إنه مجرم معروف وله سجل سرقات نشل، ولسوء الحظ أنه كان تحت المُراقبة في هذه الليلة. عُثِر على مفكرة الجيب بحوزته، وكان من الممكن أن يكون كل شيء على ما يرام، لولا أن شرطيًّا ذكيًّا على غير العادة ربط بين المحتويات وبيننا.

بعد أن تركتك عدت إلى البيت وأبدلت ملابسي، وتوجهت إلى داوننج ستريت. كنت واحدًا من الحشد الفضولي الذي وقَفَ يُراقب المدخل المدجَّج بالحرس. كنت أعرف أن فالموث هناك، وكنت أعرف أيضًا، أنه إذا ما اكتُشِف أي أمر فستُبَلَّغ به داوننج ستريت على الفور. بطريقة ما كنت متأكدًا من أن الرجل كان لصًّا عاديًّا، وأنه إن كان ثمة ما نخشاه، فهو أن يُقْبَض عليه بالصدفة. بينما كنت أنتظر دخلت عربة أجرة، وقفَزَ منها رجل متحمِّس. كان من الواضح أنه شرطي، وكان لديَّ وقتٌ لأن أستقل عربة تجرها الخيول عندما كان فالموث والقادم الجديد يَنطلقان خارجَين. تبعتهما في عربة الأجرة بأسرع ما يُمكن دون أن أثير شكوك السائق. بالطبع، سبَقاني، وكانت وجهتهما مؤكَّدة. ترجَّلتُ من عربة الأجرة وصرفتها عند منعطف الشارع الذي كان فيه قسم الشرطة، وسرت على قدمي ووجدت السيارة، كما توقعت، متوقفة أمام الباب.

تمكَّنتُ من إلقاء نظرة سريعة عابرة على غرفة الضابط المناوب؛ كنت أخشى أن يكون أي تحقيق هناك يجري في الزنزانة، لكن لحسن الحظ اختاروا غرفة الضابط المناوب. رأيتُ فالموث، والشرطي، والسجين. كان الأخير رجلًا ذا وجه يوحي بالدناءة، وفكٍّ طويل وعينَين زائغتَين. لا، لا، ليون، لا تُشكِّك في تحليلي لملامح وجه الرجل، كانت معاينتي لأغراض تصويرية، أردت أن أتذكره وتنطبع صورته في ذهني.

في تلك اللحظة كان بوسعي أن ألاحظ غضب المفتش، ومقاومة اللص، وعرفت أن الرجل كان يقول إنه لم يستطع أن يتعرف علينا.»

«ها!» كانت زفرة ارتياح مانفريد هي التي جعلت بويكارت يتوقَّف عن الكلام.

تابع الأخير: «لكنَّني أردتُ أن أتأكد. سرتُ عائدًا من حيث أتيت. فجأة سمعت صوت هدير السيارة من خلفي، ومرَّت بي وبها راكب آخر. خمنت أنهم كانوا يأخذون الرجل عائدين إلى سكوتلاند يارد.

كنت راضيًا بأن أعود سيرًا؛ لكن كان لديَّ فضول لمعرفة ما تنوي الشرطة فعله مع رجلها الجديد. اتخذت موقعًا للمراقبة مكَّنني من رؤية مدخل الشارع، وانتظرت هناك. بعد فترة خرج الرجل بمُفردِه. كان يسير بخطوات خفيفة ونشيطة. لمحت وجهه وكان يظهر عليه مَزيجٌ غريب من الحيرة والرضا. اتَّجه نحو كورنيش النهر، وسرت وراءه على مقربة منه.»

قال جونزاليس: «كان ثمَّة خطر أن تكون الشرطة تتبعُه أيضًا.»

أجابه بويكارت: «كنت مطمئنًّا تمامًا من تلك الناحية. قبل أن أتبعه، استطلعت الطريق بحرص. ظاهر الأمر أن الشرطة كانت مُكتفية بأن تتركه يتجوَّل بحرية. عندما كان بجوار درجات المعبد توقف ونظر يمنة ويسرة في تردُّد، وكأنه غير واثق تمامًا إلى أين يَنبغي أن يذهب. في تلك اللحظة سرت بجواره، ثم استدرت إلى الوراء، وأخذت أفتش في جيوبي.

سألته: «أتتفضَّل بإعطائي عود ثقاب؟»

كان لطيفًا للغاية؛ أخرج علبة ثقابٍ ودعاني إلى استخدامها.

أخذت عود ثقاب، وقدحته، وأشعلت به سيجاري، ورفعت عود الثقاب حتى يتمكن من رؤية وجهي.»

قال مانفريد بجدية: «كان ذلك من الحكمة.»

أظهر هذا وجهه أيضًا، وبطرف عيني شاهدته يتفرس في ملامحي. لكن لم تكن ثمة أي إشارة إلى أنه تعرف عليَّ وبدأت معه حديثًا. تطرقنا لبعض الوقت إلى الحديث عن أين التقينا من قبل ثم اتَّفقنا على أن نسير معًا في اتجاه بلاك فرايرز، وعبرنا الجسر، ونحن ندردش في موضوعات غير مترابطة، عن الفقراء، والطقس، والصحف. على الناحية الأخرى من الجسر يوجد كشك لبيع القهوة. عزمتُ على أن أتَّخذ خطوتي التالية. دعوته إلى تناول قدح من القهوة، وعندما وُضِعَ القدحان أمامنا، وضعت جنيهًا ذهبيًّا على المنضدة. هز صاحب الكشك رأسه، وقال إنه لا يستطيع أن يعطيني الباقي. وسألني: «ألا يوجد مع صديقك عملة أصغر؟»

عندئذٍ عرفت من خيلاء اللص الصغير ما أردت معرفته. أخرج من جيبه، متظاهرًا باللامبالاة، جنيهًا ذهبيًّا وقال متشدِّقًا: «هذا كل ما معي.» عثرت معي على بعض العملات

الصغيرة، وكان عليَّ أن أفكر بسرعة. لقد أخبر الشرطة بأمر ما، أمر يستحق مالًا مقابله؛ ماذا كان هذا الأمر؟ لم يكن من المُمكِن أن يكون أوصافنا؛ لأنه لو كان قد تعرف علينا عندئذٍ، كان سيعرفني عندما قدحت عود الثقاب وعندما كنت واقفًا هناك، كما فعلت، تحت وهج ضوء كشك القهوة. ثم أحسست ببرودة الخوف تَسري في أوصالي. ربما كان قد تعرف عليَّ، وبمكر لص كان يعطلني بالحديث حتى يتمكَّن من الحصول على مساعدة للقبض عليَّ.

توقف بويكارت لحظةً، وأخرج من جيبه قارورة صغيرة؛ ووضعها بحرص على الطاولة.

قال بهدوء: «كان عندئذٍ أقرب للموت من أيِّ وقت مضى في حياته، لكن بطريقةٍ ما زال الشك. أثناء سيرنا كان قد مرَّ بثلاثة رجال شرطة؛ كانت أمامه فرصة لو أنه كان يريد ذلك.

شرب قهوته وقال: «يجب أن أذهب إلى البيت.»

فقلت: «بالتأكيد. أظن أنه ينبغي أن أذهب للبيت أنا أيضًا؛ فلديَّ عمل كثير غدًا.»

حملق فيَّ، وقال مبتسمًا: «وأنا أيضًا، لكني لا أعرف إن كنت سأستطيع أن أقوم به.»

كنا قد تركنا كشك القهوة، وحينئذٍ توقفنا تحت أحد أعمدة الطريق على ناصية الشارع.

أدركت أن أمامي لحظات قليلة لأحصل فيها على المعلومات التي أردتُها؛ لذا تجرأت وتطرقت مباشرة إلى الموضوع. سألته، وهو على وشك أن يرحل: «ما أخبار رجال العدالة الأربعة هؤلاء؟» التفت على الفور. سألني بسرعة: «ماذا عنهم؟» استدرجته منذ ذلك بلطف إلى الحديث عن هوية «الأربعة». كان مُتلهِّفًا للحديث عنهم، وتوَّاقًا إلى معرفة رأيي، لكن جل اهتمامه كان منصبًّا حول المكافأة. كان مستغرقًا في الحديث عن الموضوع، وفجأة مال بجذعه إلى الأمام، ونقَرَ بسبَّابة متَّسخة على صدري، وشرع يتكلم عن حالة افتراضية.»

توقف بويكارت عن الحديث ليضحك؛ وانتهى ضحكه إلى تثاؤب ناعس.

قال: «تعرف هذا النوع من الأسئلة، وتعرف كم يكون غير المُتعلِّمين سذَّجًا عندما يسعون إلى إخفاء هوياتهم عن طريق فرضيات مستفيضة. حسنًا، تلك هي القصة. هو، اسمه ماركس، بالمناسبة، يظنُّ أنه قد يتمكَّن من التعرف على واحد منَّا عن طريق حيلة مدهشة من حيل الذاكرة. ولتمكينه من فعل هذا، أطلقت الشرطة سراحه؛ وغدًا سيبحث في لندن، هكذا قال.»

قال مانفريد ضاحكًا: «سيطول بحثه كثيرًا.»

صَدَّق بويكارت على قوله بجدية قائلًا: «بالفعل، لكن اسمع بقية القصة. افترقنا، وسرت غربًا وأنا مطمئن تمامًا إلى سلامتنا. توجهت نحو سوق كوفنت جاردن ماركت؛ لأن هذا هو أحد الأماكن في لندن التي يُمكن أن يُشاهَد فيها رجل في الساعة الرابعة صباحًا دون أن يثير الريبة.»

«كنتُ أسير عبر السوق، وأشاهد بتراخٍ المشهد المُزدحم، عندما استدرتُ فجأةً على عقبي، لسبب لا أستطيع تفسيره، ووجدت نفسي وجهًا لوجه أمام ماركس! ابتسم لي بخجل، وتعرف عليَّ بإيماءة من رأسه.

لم ينتظر حتى أسأله ماذا يفعل هنا، وإنما بدأ يفسر سبب وجوده.

قبلت تفسيره ببساطة، وللمرة الثانية في تلك الليلة دعوته لاحتساء القهوة. تردَّد في البداية، ثم قبل. عندما أُحْضِرَت القهوة، سحب قدحه بعيدًا عن متناولي قدر الإمكان، وعندئذٍ عرفت أن السيد ماركس كان يرتاب في أمري، وأنني استهنت بذكائه، وأنه طيلة الوقت كان يزيح عن نفسه عبء أنه قد تعرف عليَّ. لقد كان يستغفلني.»

قال مانفريد: «ولكن لماذا؟»

أجاب بويكارت: «ذاك هو ما فكرت فيه. لماذا لم يجعل الشرطة تقبض عليَّ؟» التفتَ إلى ليون، الذي كان يستمع في صمت. «قل لنا، يا ليون، لماذا؟»

قال جونزاليس بهدوء: «التفسير بسيط؛ لماذا لم يَخُنَّا تيري؟ السبب هو الجشع، ثاني أقوى العوامل الفعَّالة في الحضارة. إن لديه بعض الشك في المكافأة. ربما يخشى نزاهة الشرطة؛ معظم المجرمين يفعلون ذلك؛ وربما يريد شهودًا.» سار ليون إلى الحائط، حيث كان معطفُه معلَّقًا. أخذ يُزرِّره في تفكير، ومرر يده على ذقنه الناعمة، ثم أخذ القارورة الصغيرة من فوق الطاولة ووضعها في جيبه.

سأله: «لقد تملَّصت منه، على ما أظن. أليس كذلك؟»

أومأ بويكارت إيجابًا.

«هل عرفت أين يقطن؟»

«في ٧٠٠ ريد كروس ستريت، في بورو؛ إنه سكن شعبي.»

أخذ ليون قلمَ رصاص من فوق الطاولة ورسم بسرعة رأسَ رجل على طرف ورقة جريدة.

سأله: «هل يبدو مثل هذا؟»

تأمَّل بويكارت الرسم.

قال في دهشة: «نعم، هل رأيته من قبل؟»

قال ليون بلا مبالاة: «لا، ولكن رجلًا كهذا سيكون له رأس كذلك.»

توقف عند عتبة الباب.

قال: «أظن أنه أمر ضروري.» كان ثمة سؤال في تأكيده. كان موجهًا إلى مانفريد، الذي نهض وذراعاه متشابكتان ومقطبًا جبينه ويحدق في الأرض.

وردًّا عليه بسط مانفريد قبضته المضمومة. رأى ليون الإبهام المتجه إلى أسفل، وغادر الغرفة.

كان بيلي ماركس واقعًا في ورطة. كانت فريسته قد نجحت في الإفلات من بين أصابعه بأبسط طريقة في العالم. عندما توقَّف بويكارت أمام المدخل المصقول لأفضل فندق في لندن، الذي كانا يمران بجواره، وقال بطريقة عفوية إنه لن يستغرق لحظة واختفى داخل الفندق، وقع بيلي في حيرة. كانت هذه حالة طارئة لم يكن مُستعدًّا لها. كان قد تبع المشتبه به من بلاك فرايرز؛ كان شبه متأكد أن هذا هو الرجل الذي سرقه. كان يُمكنه، لو أراد، أن يُنادي أول شرطي قابله ليقبض عليه؛ لكن تشكُّك اللص، والخوف من أن يُطْلَب منه اقتسام المكافأة مع الرجل الذي عاونه، ألجماه. وإلى جانب ذلك، ربما لا يكون هو الرجل المنشود على الإطلاق، هكذا حاجج بيلي نفسه، ومع ذلك ...

كان بويكارت كيميائيًّا، ورجلًا يستمتع بالرواسب الخطرة، رجلًا مزج عقاقير كريهة الرائحة، وقَطَّر مواد كيميائية ورشَّحها وأضاف إليها الكربونات ومواد مؤكسِدة وفعل كل صنوف الأشياء في أنابيب زجاجية، حتى النباتات والحيوانات، والنواتج المعدنية النابعة من الأرض.

كان بيلي قد غادَرَ سكوتلاند يارد ليبحث عن رجل ذي يد باهتة اللون. وهنا، مجددًا، ربما لو كان خوفه من التعرض للخيانة أقل، كان سيضع في أيدي الشرطة علامة تعريف هوية قيمة جدًّا.

يبدو عذرًا واهيًا جدًّا الإصرار نيابةً عن بيلي على أن السبب الوحيد الذي منعه عندما صار وجهًا لوجه أمام الرجل الذي كان يبحث عنه هو جشعه. ومع ذلك فقد كان الأمر كذلك. ثم مجدَّدًا كانت ثمة عملية حسابية بسيطة تعتمل في عقله. إذا كان رجل واحد من رجال العدالة الأربعة يساوي ألف جنيه، فكم كانت القيمة السوقية لأربعة؟ لقد كان بيلي لصًّا ذا عقلية تجارية. في عمله اليومي لم تكن توجد منتجات بلا قيمة. لم يكن وغدًا

محافظًا عالقًا في فرع واحد من فروع مهنته. كان يمكن أن يسرق ساعة، أو درج نقود، أو يمرر نقودًا مزيفة بالقدر نفسه من الاستعداد. كان كالفراشة في عالم الإجرام، يرفرف من زهرة ممنوعة إلى أخرى، وكان مصدرًا مجهولًا «للمعلومات المتلقاة».

وهكذا عندما اختفى بويكارت عبر البوابات الفخمة لفندق ذا رويال هوتيل في شارع نورثمبرلاند كان بيلي محبطًا. فقد أدرك في لمح البصر أنَّ أسيره قد ذهب إلى مكان لا يستطيع أن يَلحقَه فيه دون أن يكشف عن أوراقه؛ وأن فرصه قد وَلَّت إلى الأبد. نظر يَمنةً ويَسرةً في الشارع؛ لم يكن يوجد شُرطي على مرمى البصر. في مدخل الفندق، كان بوَّابٌ يَرتدي قميصًا بأكمام يُلَمِّع اللوحات النحاسية. كان الوقت لا يزال مبكرًا جدًّا؛ والشوارع خالية، وبعد لحظات قليلة من التردد، سلك مسارًا ما كان يجرؤ على أن يسلكه في الظروف العادية.

دفع الأبواب الدوَّارة وعبر إلى البهو. التفَتَ إليه البواب وهو يدخل ورمقه بنظرة تشكُّك مُتجهِّمة.

سأله: «ماذا تريد؟» وهو يتطلَّع ببعض الازدراء إلى مِعطَف الزائر المزق.

قال بيلي، بأقصى نبرة استرضاء لديه: «اسمع، يا رفيقي القديم.»

في تلك اللحظة تحديدًا أمسكت ذراع البواب القوية بياقة معطِفه، ووجَدَ بيلي نفسه يتعثر في الشارع.

قال البواب بحزم: «اخرُج أيها ...»

استلزم الأمر هذه الإهانة حتى يستحثَّ في ماركس الثقة بالنفس اللازمة لمساعدته على التحمُّل.

بعدما أصلح ملابسه المُكرمشة، أخرج بطاقة فالموث من جيبه واستدار إلى البواب المسئول عن مدخَلِ الفندق برصانة.

قال، مستخدمًا الاستهلال الذي كان يعرفه جيدًا: «أنا ضابط شرطة، وإن تدخلت في عملي فحذارِ، يا رفيقي الشاب!»

أخذ البواب البطاقة وتفحَّصَها.

سأله بنبرة أكثر تهذيبًا: «ما الذي تريده؟» كان سيُضيف «يا سيدي!» لكن الكلمة وقفت بطريقة ما في حلقه. قال لنفسه إنه لو كان الرجل محققًا فتنكُّره رائع.

قال بيلي: «أريد ذلك الرجل الذي دخل قبلي.»

حكَّ البواب رأسه مفكِّرًا.

سأله: «ما رقم غرفته؟»

قال بيلي بسرعة: «دعك من رقم غرفته. هل توجد أي مخارج خلفية لهذا الفندق؛ أي طريق يُمكن لرجل أن يخرج منها؟»

أجاب البواب: «ستة مخارج.»

همهم بيلي غاضبًا.

قال له: «خُذني إلى واحد منها، أيمكنك ذلك؟» فتقدمه البواب.

كان أحد مداخل الخدمات يفضي إلى شارع خلفي صغير؛ وهناك أعطى أحد الكناسين لماركس المعلومة التي كان يخشاها. منذ خمس دقائق خرج رجل تنطبق عليه الأوصاف، ومشى في اتجاه شارع ستراند، واستقل عربة أجرة على مرأًى من الكناس، ومضى في طريقه.

شعر بيلي بالارتباك، وبمرارة إضافية لأنه كان يُمكن أن يحصل على أيِّ حال على حصة من ألف جنيه، سار بيلي بتثاقل إلى كورنيش النهر، وهو يلعن الحماقة التي جعلته يُطيح بالثروة التي كانت بين يديه. سار متسكعًا، ويداه مدسوستان بعمق في جيوبه، في طريق كورنيش النهر الطويل المُتعب، يفكر مرارًا وتكرارًا في أحداث الليلة متمتمًا في كل مرة بإدانة قاسية لخطئه. لا بد أن ساعة كانت قد مرت بعد فقده بويكارت عندما خطر له أنه لم يفقد كل شيء. كانت لديه أوصاف الرجل، فقد نظر إلى وجهه، وعرف كل تفصيلة في ملامحه. كان لا يزال لديه شيء على أي حال. خطر له أنه لو قُبِض على الرجل عن طريق الأوصاف التي سيُدلي بها فما زال من حقه الحصول على المكافأة، أو جزء منها. لم يجرؤ على مقابلة فالموث وإبلاغه أنه كان في صحبة الرجل طيلة الليل دون أن يمكِّن الشرطة من القبض عليه. لن يُصدقه فالموث أبدًا، وبالفعل، كان غريبًا أنه التقى به.

أدرك بيلي هذه الحقيقة لأول مرة. أي صدفة غريبة جعلته يلتقي بالرجل؟ هل من الممكن أن الرجل الذي سرقه تعرف عليه، وأنه كان يلاحقه بنية قتله؟ أصابتْه هذه الفكرة بالرعب.

تفصَّد عرقٌ باردٌ على جبهة اللص الضيقة. لقد كان هؤلاء الرجال قتَلة، قتَلَة قُساة القلوب عديمي الرحمة؛ أيمكن أن ...

تحول عن تأمُّلاته بشأن الاحتمالات غير السارَّة ليُشاهد رجلًا كان يعبر الطريق نحوه. راقب الغريب بتشكُّك. كان الوافد الجديد رجلًا يبدو شابًّا، حليق الذقن، ذا ملامح

حادة وعينين زرقاوين قلقتين. حين ازداد اقترابًا، لاحظ ماركس أن المظهر الأول كان خادعًا؛ فلم يكن الرجل شابًّا كما بدا. فكر ماركس في نفسه أنه ربما كان في الأربعين من عمره. اقترب الرجل، وأمعن النظر في بيلي، وأشار إليه أن يتوقف؛ إذ كان بيلي يسير مبتعدًا.

سأله الغريب بلهجة آمرة: «هل اسمُكَ ماركس؟»

أجاب اللص: «نعم، يا سيدي.»

«هل قابلتَ السيد فالموث؟»

أجاب ماركس في دهشة: «لم أرَه منذ ليلة أمس.»

«إذن عليك أن تأتي لتُقابله على الفور.»

«أين هو؟»

«في قسم شرطة كنسينجتون، فقد أُلقيَ القبض على رجل ونريدك أن تتعرف عليه.»

اعترى الخوف بيلي.

تساءل: «هل سأحصل على أي مكافأة، إن تعرفت عليه؟»

أومأ الآخر برأسه إيجابًا، فانتعشت آمال بيلي.

قال الوافد الجديد: «لا بد أن تتبعَني؛ فالسيد فالموث لا يودُّ أن يرانا أحدٌ معًا. اشترِ تذكرة في الدرجة الأولى إلى كنسينجتون واركب المقصورة التالية لمقصورتي، تعالَ.»

استدارَ وعبر الطريق صوب شيرنج كروس، وتبعه بيلي على مسافة.

وجد بيلي الغريب يذرع رصيف المحطة ولم يُبدِ أيَّ إشارة أنه يعرفه. توقف قطار في المحطة وتبع بيلي مرشده عبر حشد من العمال كانوا قد نزلوا من القطار. دخل عربة درجة أُولى خاوية، وطاعةً للتعليمات، دخل في المقصورة الملاصقة، ووجد أنه الراكب الوحيد فيها.

بين شيرنج كروس ووستمنستر كان لدى ماركس وقت لاستعراض موقفه. بين المحطة الأخيرة وسان جيمس بارك، اختلق أعذارًا ليقدمها إلى المفتش؛ وبين سان جيمس بارك وفيكتوريا كان قد استقر على تبريره لادعاء حقه في نصيب من المكافأة. ثم عندما كان القطار يتحرَّك ليدخل النفق الذي يؤدي بعد خمس دقائق إلى محطة ميدان سلون، لاحظ بيلي تيارًا هوائيًّا، وأدار رأسه ليرى الغريب واقفًا على سلم عربة القطار المتأرجح، ممسكًا بباب المقصورة الموارب.

أجفل ماركس.

قال الرجل بلَهجة آمرة: «ارفع النافذة التي بجانبك.» وأطاعَ بيلي أمره؛ إذ سيطرت عليه اللهجة المتسلطة. في تلك اللحظة سمع صوت شيء زجاجي يتحطم.

استدار بزمجرة غاضبة.

تساءل: «ما الذي يعنيه هذا؟»

كان رد الغريب أن اندفع خارجًا من الباب وأغلقه برفق، واختفى.

كرر ماركس السؤال بنعاس: «ما الذي يعنيه هذا؟» نظر إلى أرضية المقصورة فرأى قارورة مكسورة عند قدميه، وبجانب القارورة جنيهٌ ذهبي لامع. حدق فيه بغباء للحظة، ثم، قُبيل مرور القطار بمحطة فيكتوريا، انحنى ليلتقطه و...

الفصل العاشر

الثلاثة الذين ماتوا

كان أحد الركاب يختار على مهل مقصورته أثناء توقف القطار في كنسينجتون؛ ففتح باب مقصورة وترنَّح متراجعًا للوراء وهو يسعل. هرع حمال وأحد موظفي المحطة جزعين إلى المقصورة وفتحا الباب، فانتشرت في المحطة رائحة اللوز الكريهة.

تجمع بعض الركاب وأخذوا يَنظُرون من فوق أكتاف بعضهم البعض، بينما كان مفتش المحطة يتحرَّى الأمر. بعد قليل جاء طبيب، ومعه محفة إسعاف، وشرطي من الشارع القريب.

حملوا معًا جثة الرجل المتكومة من عربة القطار إلى رصيف المحطة.

سألهم الشرطي: «هل وجدتم أي شيء؟»

كانت الإجابة: «لم نجد إلا جنيهًا ذهبيًّا وقنينة مكسورة.»

تحسس الشرطي جيوب الرجل الميت.

قال بخبرة: «لا أظن أنه سيكون معه أيُّ أوراق تدل على هويته. ها هي تذكرة درجة أولى؛ لا بدَّ أنها حالة انتحار. ها هي بطاقة.»

قلب البطاقة وقرأ ما كان مكتوبًا عليها، وامتقع لونه.

أعطى بضع تعليمات بسرعة، ثم اتجه إلى أقرب مكتب هاتف.

استيقظ المفتِّش فالموث، الذي لم يكن قد ظفر إلا ببضع ساعات من النوم في مقر وزارة الخارجية في داوننج ستريت، بذهن مُضطرِب وشعور قلق بأن اليوم سينتهي نهاية كارثية على الرغم من كل احتياطاته. وما كاد يَنتهي من ارتداء ملابسه حتى أُعْلِن عن وصول مُساعد مفوض الشرطة.

لم يُلقِ المسئول عليه التحية بل بادره بقوله: «لقد تلقيت تقريرك، يا فالموث، لقد أحسنت فعلًا أن أطلقت سراح ماركس؛ هل وصلتك أي أخبار عنه هذا الصباح؟»

«لا.»

همهم المفوض مفكرًا، ثم قال: «أتساءل إن كان ...» لم ينهِ جملته. «هل خطر ببالك أنه ربما يكون الأربعة قد أدركوا الخطر الذي يتهددهم؟»

أظهر وجه المفتش شعوره بالمفاجأة.

«عجبًا، بالطبع، يا سيدي.»

«هل وضعت في اعتبارك ماذا سيكون مسلكهم المحتمل؟»

«كلا، ولكن قد يُحاولون الهرب من البلاد.»

«ألم يَخطر ببالك أنه، بينما يبحث هذا المدعو ماركس عنهم، من المحتمَل أن يكونوا يسعون إلى الوصول إليه؟»

قال المفتش بلهجة قلقة: «إن بيلي ذكي.»

قال المفوض بإيماءة مؤكِّدة: «وهم أيضًا كذلك. نصيحتي أن تتصل بماركس وأن تكلف رجلين من خيرة رجالك بحراسته.»

أجاب فالموث: «سأفعل هذا فورًا، ولكنني أخشى أنه كان ينبغي اتخاذ هذا الإجراء الاحترازي في وقت سابق.»

تابع المفوض: «سأذهب لمقابلة السير فيليب.» وأضاف بابتسامة غامضة: «سأضطر إلى أن أخيفه قليلًا.»

«لأي غرض؟»

«نأمل أن يسحب مشروع القانون هذا. هل طالعت الصحف الصباحية؟»

«لا، يا سيدي.»

«كلها مُجْمِعة على أنه يجب التخلي عن مشروع القانون؛ وتقول إن البلاد نفسها منقسمة حول جدواه؛ لأنه ليس بالأهمية الكافية التي تبرر المخاطرة؛ لكن في حقيقة الأمر تخشى الصحف من العواقب؛ والحق أنني أيضًا خائف قليلًا.»

مضى مفوض الشرطة صاعدًا درجات السلم، وعلى بسطة الطابق التالي أوقفه أحد مرءوسيه.

كان هذا نظامًا أُدْخِل بعد واقعة «المفتش» المتنكِّر. كان وزير الخارجية الآن في حالة حصار. لم يكن يوثَق في أحد، واستُخْدِمَت كلمة سر، واتُّخِذ كل الاحتياطات الممكنة لضمان عدم تكرار الغلطة السابقة.

رفع يده ليطرق على زجاج غرفة المكتب، عندما شعر بأن أحدًا يُمسِك بذراعه. التفت ليرى فالموث بوجه شاحب وعينين مذعورتين.

قال المفتش بأنفاس مبهورة: «لقد قضوا على بيلي. لقد عُثِر عليه للتو في عربة قطار في كنسينجتون.»

صفَّر المفوض مذهولًا.

وسأله: «كيف فعلوا ذلك؟»

كان فالموث مثالًا لليأس الشديد.

قال بمرارة: «غاز حمض البروسيك؛ إنهم يَمتلكون خبرة علمية. اسمع يا سيدي، أقنع هذا الرجل بسحب مشروع قانونه اللعين.»

أشار إلى باب غرفة السير فيليب وقال: «لن نَستطيع إنقاذه. أشعر في أعماقي أن هذا الرجل محكوم عليه بالهلاك.»

أجابه المفوض بحدة: «هراء!»

«إن عصبيتك تزداد؛ أنت لم تنل قسطًا كافيًا من النوم، يا فالموث. ما تقوله يخالف طبيعتك الحقيقية؛ إن من واجبنا إنقاذه.»

استدار موليًا ظهره لغرفة المكتب ونادى على أحد الضباط الذين كانوا يحرسون بسطة الدَّرَج.

«أيها الرقيب، اطلب من المفتش كولينز أن يرسل نداء طوارئ في سائر المنطقة لجمع القوات الاحتياطية فورًا.» واستطرد مخاطبًا فالموث: «سأنصب طوقًا أمنيًّا حول رامون اليوم، لن يستطيع إنسان أن يصل إليه دون أن يخشى من أن يُسْحَق.»

في خلال ساعتَين شهدت لندن مشهدًا ليس له نظير في تاريخ المدينة. من كل منطقة جاء جيش صغير من رجال الشرطة. وصلوا بالقطارات، والترام، والحافلات، وبكل وسيلة مواصَلات وكل وسيلة جر يُمكن مصادرتها أو الاستيلاء عليها. توافدوا من أقسام الشرطة، وتدفَّقُوا عبر الشوارع، حتى وقف أهل لندن مشدوهين عندما أدركوا مدى قوة دفاعاتهم المدنية.

سرعان ما أصبح شارع وايتهول مكتظًّا برجال الشرطة من أوله إلى آخره؛ واستحال لون حديقة سان جيمس بارك أسود بلون لباس رجال الشرطة. تلقائيًّا أُعيقت حركة السير تمامًا في شارعي تشارلز، وبيرد كيج، والطرف الشرقي من شارع ذا مول، بكتائب قوية من رجال الشرطة على الخيول. كان شارع سان جورج في قبضة قوة الشرطة، وكان سطح كل منزل يحتله رجل بلباس رسمي. لم يسلم منزل ولا غرفة كانت تطلُّ بأدنى درجة على مقر وزارة الخارجية من التفتيش الصارم. بدا الأمر وكأن الأحكام العرفية قد

أُعلِنَت، وبالفعل كانت كتيبتان من الحرس الوطني بكامل عتادهما على أهبة الاستعداد طوال اليوم لأيِّ طارئ. في غرفة السير فيليب كان مفوض الشرطة، بمُعاونة فالموث، يُحاول للمرة الأخيرة إقناع الرجل العنيد الذي كانت حياته مهدَّدة.

قال مفوض الشرطة بجدية: «أؤكد لك يا سيدي أنه ليس بإمكاننا أن نفعل أكثر مما فعلنا، ومع ذلك ما زلت أشعر بالخوف. إن هؤلاء الرجال يؤثرون في نفسي كما من شأن شيء خارق للطبيعة أن يفعل. أشعر بخوف رهيب أن نكون، مع كل الاحتياطات التي اتخذناها، قد أغفلنا شيئًا؛ أن نكون قد تركنا شارعًا بدون حراسة يمكنهم بعبقريتهم الشيطانية أن يستخدموه. إن موت هذا الرجل ماركس قد هز أعصابي؛ إن الأربعة مُتغلغلون في كل مكان ويتمتعون بجبروت مطلق. أتوسل إليك، يا سيدي، بحق الرب، أن تفكر جيدًا قبل أن ترفض شروطهم نهائيًّا. هل تمرير مشروع هذا القانون له ضرورة قصوى؟» وتوقف عن الكلام، ثم عاد يسأل بصراحة فجة: «هل يساوي حياتك؟» وكان السؤال من الفظاظة لدرجة أنه جعل السير فيليب يجفل.

انتظر بعض الوقت قبل أن يجيب، وعندما تكلم كان صوته منخفضًا وحازمًا.

قال ببطء، بنبرة واهنة وعنيدة بالقدر نفسه: «لن أسحب مشروع القانون. لن أسحبه تحت أي ظروف.»

استطرد، رافعًا يده ليَكبح الْتماسَ فالموث: «لقد قطعت شوطًا طويلًا. لقد تجاوزت الخوف، بل إنني تجاوزت مسألة الضغينة؛ لقد صار الأمر يمثل لي مسألة متعلقة بالعدالة. هل أنا على حق في طرح قانون يُخلص البلاد من جاليات من المجرمين الأذكياء ذكاءً خطرًا، الذين، بينما يتمتعون بحصانة من القبض عليهم، يدفعون الجهلاء إلى ارتكاب أعمال عنف وخيانة؟ إن كنت على حق، فإن رجال العدالة الأربعة على باطل. أم هم على حق؟ هل هذا القانون إجراء غير عادل، عمل من أعمال الطغيان، بربرية طرأت على فكر القرن العشرين، لتمثل مفارقة تاريخية؟ إن كان هؤلاء الرجال على حق، فأنا على باطل. عندئذٍ يكون الأمر قد وصل إلى نقطة أن عليَّ أن أرضى بمعيار الصواب والخطأ الذي يجب أن أقبله، وأن أَقبلَ مصيري.»

واجهَ نظرات التعجُّب في أعين رجلَي الشرطة بملامح هادئة وثابتة.

استطرد في هدوء: «لقد كنتم حكماء أن اتخذتم الاحتياطات التي قُمتم بها. وكنتُ من الحماقة أن غضبتُ من رعايتكم الاحترازية.»

قاطعه مفوض الشرطة قائلًا: «بل يجب أن نتَّخذ المزيد من الاحتياطات؛ فبين الساعة السادسة والنصف والساعة الثامنة الليلة نُريد منك أن تبقى في غرفة مكتبك، وألا تفتح

الباب لأي شخص تحت أي ظروف؛ حتى لو كان أنا أو السيد فالموث. خلال تلك الفترة يجب أن تُبقي بابك موصدًا.» وتردَّد قبل أن يُضيف: «وإن وددت أن يبقى أحدنا معك في الغرفة ...»

رد الوزير بسرعة قائلًا: «لا، لا؛ بعد واقعة التنكُّر التي حدثت أمس، أُفَضِّل أن أكون وحدي.»

أومأ المفوض برأسه. ثم قال، ملوِّحًا بيده في أرجاء الغرفة: «إن هذه الغرفة محصنة من أي اعتداء همجي. أثناء الليلة الماضية أجرينا فحصًا كاملًا للأرضيات، والسقف وثبتنا دروعًا فولاذية لدرفات النوافذ.»

جال بنظره في أنحاء الغرفة بتدقيق رجل كان كل شيء ظاهر له مألوفًا.

ثم لاحظ ظهور شيء جديد. على الطاولة كانت توجد مزهرية خزفية زرقاء مملوءة بالورود.

قال، وهو يُميل رأسه ليشمَّ رائحة الزهور الجميلة: «هذه جديدة هنا.»

أجاب رامون بلا مبالاة: «أجل، لقد أُرسِلَت من منزلي في هيرفورد هذا الصباح.»

قطف المفوض ورقة من إحدى الأزهار ولفَّها بين أصابعه. قال على نحو يَنطوي على تناقض: «إنها تبدو حقيقية للغاية، لدرجة أنها قد تكون صناعية.»

بينما كان يتكلَّم أدرك أنه ربط بين الورود بطريقة ما وبين. بين ماذا؟

نزل ببطء على الدرج المصنوع من الرخام الخالص؛ وبين كل درجة وأخرى كان يقف شرطي؛ وأبدى رأيه لفالموث.

«لا يُمكنك أن تلوم الرجل العجوز على قراره؛ في الواقع، لقد أُعجبت به اليوم أكثر من أي وقت مضى، ولكن ...» كان ثمَّة تهيب مفاجئ في صوته وهو يضيف: «أنا خائف. أنا خائف.»

لم يقل فالموث شيئًا.

استطرد المفوض قائلًا: «لم نستنتج شيئًا من المفكرة، عدا خط السير الذي ربما كان السير فيليب سيسلكه لو كان حريصًا على الوصول إلى ٤٤ داوننج ستريت عن طريق الشوارع الخلفية. إن عقمَ الخطة يكاد يكون مقلقًا، لوجود أدلة كثيرة على أن ثمة عقلًا قويًّا خفيًّا وراء البراءة الظاهرة لهذه القائمة من أسماء الشوارع؛ حتى إنني واثق من أننا لم نفهم الفحوى الحقيقية لمعناها.»

مر عبر الشوارع وشق طريقه بين حشود رجال الشرطة. كانت النتيجة الطبيعية للطبيعة الاستثنائية للاحتياطات المتخذة من قبل الشرطة أن أبقت العامة بمعزل عن كل

ما كان يحدث في داوننج ستريت. مُنِع المراسلون من دخول المنطقة السحرية، وتعين على الصحف، وخاصة الصحف المسائية، أن تعتمد على المعلومات التي كانت سكوتلاند يارد تقدمها على مضض. كانت هذه المعلومات ضئيلة للغاية، بينما كانت القرائن والنظريات، التي كانت كثيرة، متنوعة وعجيبة.

بذلت صحيفة «ميجافون»، الصحيفة التي اعتبرت نفسها أكثر الصحف المعنية بطريقة مُباشرة بأفعال رجال العدالة الأربعة، قصارى جهدها من أجل الحصول على أخبار عن أحدث التطورات. بمجيء اليوم المحتوم، كانت الإثارة قد وصلت إلى مستوًى استثنائي؛ فكانت كل طبعة جديدة من الصحف المسائية تَنفد بمجرد نزولها إلى الشوارع. لم يكن يوجد إلا القليل من المادة الصحفية التي تُشبع شهية الجمهور المحب للإثارة، لكن لم يكن بوسع الصحف إلا أن تقدم ما كان متاحًا. تفوقت صور مقرِّ وزارة الخارجية، والصور الشخصية للوزير، وخرائط المنطقة المحيطة بوزارة الخارجية، والرسوم التوضيحية التي تشرح الاحتياطات القائمة المتَّخذة من قبل الشرطة، على الأعمدة المكتوبة، ليس مرة بل عشرات المرات، إلى جانب معلومات عن سوابق «الأربعة» حسبما تَكشف جرائمهم.

ومع بلوغ الفضول ذروته، وإذ لم يَعُد في لندن كلها، بل في إنجلترا كلها، بل في العالم المتحضر كله، حديث إلا عن موضوع واحد، وواحد فقط، جاء خبر مقتل ماركس كقنبلة مدوية.

وإذ وُصِف بأوصاف مختلفة، منها أنه كان واحدًا من المحققين المشاركين في القضية، وبأنه ضابط شرطة أجنبي، وبأنه فالموث نفسُه، تنامت أهمية مقتل ماركس من «حادث انتحار في مقصورة عربة قطار» إلى أهميتها الحقيقية. في غضون ساعة ملأت قصة المأساة، غير الدقيقة في تفاصيلها، والصادقة في جوهرها، أعمدة الصُّحف. لغز في داخل لغز! من كان الرجل ذو الملابس الرثَّة؟ ما الدور الذي كان يلعبه في اللعبة الكبرى؟ كيف وصل به الأمر إلى مَقتلِه؟ طرح العالم هذه التساؤلات على الفور؛ وشيئًا فشيئًا، تجمعت المعلومات بواسطة المُراسِلين الإخباريين الذين كانوا في كل مكان، وأصبحت القصة معروفة. على قمة هذه الأخبار جاء خبر زحف الشرطة على شارع وايتهول، وكان هذا دليلًا على الرؤية الجادة التي كانت تنتهجها السلطات.

كتب سميث في صحيفة «ميجافون»: «من موقعي المميز، يمكنني أن أرى شارع وايتهول على امتداده. لقد كان أروع مشهد شهدَتْه لندن. لم أرَ سوى بحر من الخوذات السوداء من جانب الشارع العريض إلى جانبه الآخر. الشرطة! كانت المنطقة كلها يكسوها

سواد لباس الشرطة؛ ملأ رجال الشرطة الشوارع الجانبية، واحتشدوا في حديقة سان جيمس، ولم يُشكِّلوا طوقًا أمنيًّا، بل تجمُّعًا كان يستحيل اختراقه.»

لم يترك مُفوضو الشرطة شيئًا للصدفة. فلو أنهم كانوا مُقتنعين بأنه يُمكن مجابهة المكر بالمكر، والدهاء بالدهاء، والسرية بسرية مضادة، لكانوا قد قنعوا بالدفاع عن مسئوليتهم على النمط التقليدي. لكن خصومهم كانوا يفوقونهم براعة وحيلة. كان الرهان أكبر من الاعتماد على الخطط الاستراتيجية؛ كانت هذه حالة تتطلَّب قوة غاشمة. وإذ أكتب بعد وقت طويل من الحدث، كان صعبًا أن أدرك مقدار الرعب الذي رسَّخه «الأربعة» بقوة في قلوب أفضل مؤسسة شرطية في العالم، وأن أقدر حجم الهلع الذي حاقَ بكيان اشتهر بذكائه.

سرعان ما بدأ الحشد الذي يسدُّ مشارف شارع وايتهول يزداد مع انتشار خبر مقتل بيلي، وبعد الساعة الثانية عصر ذلك اليوم بقليل، وبأمر من مفوض الشرطة، أُغلِق جسر وستمنستر أمام كل أشكال الحركة المرورية، من مركبات أو ركاب. بعد ذلك كان القسم من كورنيش النهر الذي يمتدُّ بين وستمنستر وجسر هنجرفورد قد اجتيح من قبل الشرطة وأُخلي من المارة الفضوليين؛ مُنِع دخول شارع نورث أمبرلاند، وقبل الساعة الثالثة لم تكن توجد بقعة في نطاق خمسمائة ياردة من المقر الرسمي للسير فيليب رامون لم يكن يسيطر عليها مُمثل للقانون. رافق رجال شرطة على ظهور الخيول أعضاء البرلمان في طريقهم إلى مقرِّ البرلمان، وهتف لهم الجمهور المحتشد؛ إذ اعتُبِر أن لهم نصيبًا من المجد. طيلة عصر ذلك اليوم انتظر مائة ألف شخص بصبر، ولم يشاهدوا شيئًا، عدا أبراج وقمم «أم البرلمانات»، تعلو فوق رءوس حشد رجال الشرطة، أو واجهات المباني الفارغة؛ في ميدان ترافالجر، وعلى امتداد شارع ذا مول بقدر ما سمحت الشرطة، وفي الطرف الأدنى من شارع فيكتوريا، بعمق ثمانية صفوف على امتداد كورنيش شارع ألبرت، أخذ الحشد يزداد كثافةً كل ساعة. انتظر الناس في لندن، انتظروا في صبر، بنظام، مُكتفين بالتحديق بثبات في لا شيء، لا يستمدون أي إشباع مقابل تعبهم سوى الشعور بأنهم قريبون قدر الإمكان لما قد يحتمل أن يكون مسرحًا لمأساة. وصل أجنبي إلى لندن، وأدهشه هذا التجمع، فسأل عن سببه. فأشار رجل واقف على أطراف حشد الكورنيش إلى الجهة الأخرى من النهر بمبسم غليونه.

قال ببساطة، وكأنه يصف أمرًا عاديًّا: «إننا ننتظر مصرع رجل.»

عند طرف هذه الحشود وجد باعة الصحف سوقًا رائجة. كانت الصحف تُمرَّر من يدٍ إلى يدٍ فوق رءوس المُحتشِدين. كل نصف ساعة كانت تأتي طبعة جديدة، ونظرية

جديدة، ووصف جديد للمشهد الذي كانوا هم أنفسهم يلعبون فيه دورًا غير فعال وإن كان خلَّابًا. جاء خبر إخلاء نهر التايمز في طبعة جديدة؛ وخبر إغلاق جسر وستمنستر في طبعة أخرى؛ واستحقَّ خبر القبض على اشتراكي أحمق، سعى إلى مضايقة الحشد في ميدان ترافلجار، طبعة أخرى. سُجِّل كل حدث من أحداث اليوم بأمانة وتلقفته الحشود بنهم.

طيلة عصر ذلك اليوم انتظروا، يحكون ويستمعون إلى قصة «الأربعة»، ويضعون النظريات، ويتكهَّنون، ويُصدرون الأحكام. وتحدثوا عن الذروة كما يتحدث المرء عن مشهد موعود، يراقبون عقارب بيج بن التي تتحرَّك ببطء غاضبين من الدقائق المتلكئة. قالوا عند الساعة السادسة: «لم يتبقَّ إلا ساعتان أخريان من الانتظار!» وتلك الجملة، أو بالأحرى نبرة الترقب المُمتع التي قيلت بها، دللت على روح الغوغاء. فالغوغائية شيء يتسم بالقسوة، وانعدام الرحمة والشفقة.

جاءت الساعة السابعة، وسكتَت همهمات الكلام الغاضبة. تطلعت لندن في صمت، وبقلب يخفق بسرعة، زحفت الساعة الأخيرة حول قرص الساعة الضخم.

حدث تغيير بسيط في الترتيبات في داوننج ستريت، وعند الساعة السابعة، فتح السير فيليب باب حجرة مكتبه، التي كان يجلس فيها بمفرده، وطلب من مفوض الشرطة وفالموث أن يقتربا. سارا نحوه، وتوقَّفا على بُعد أقدام قليلة من موضعه.

كان الوزير شاحب الوجه، مغضن الجبين بخطوط لم تكن موجودة من قبل. لكن اليد التي كانت تمسك بالورقة المطبوعة كانت ثابتة ولم يكن على وجهه أي انفعالات.

قال بهدوء: «أنا على وشك أن أوصد بابي. أحسب أن الترتيبات التي اتفقنا عليها ستُنَفَّذ، أليس كذلك؟»

أجاب مفوض الشرطة بهدوء: «نعم، يا سيدي.»

كان السير فيليب على وشك أن يتكلم، لكنه أمسك عن الكلام.

وبعد برهة تكلم مجددًا.

قال وكأنه يخاطب نفسه: «لقد كنتُ رجلًا منصفًا وفقًا لوجهة نظري في الأمور. مهما كان ما سيحدث أنا مقتنع بأنني أفعل الصواب. ما الأمر؟»

عبر الممر أتى صوت هدير خافت.

قال فالموث، الذي كان قد أجرى منذ قليل جولة تفقدية: «الناس يهتفون لك.»

لوى الوزير شفته في ازدراء وتسللت مسحة مألوفة من الحدة إلى صوته.

قال بمرارة: «سوف يُصابون بخيبة أمل هائلة إن لم يحدث شيء. الناس! فلينقذني الرب من الناس، ومن تعاطفهم، ومن هتافهم، ومن شفقتهم التي لا تُطاق.»

استدار ودفع باب حجرة مكتبه، وببطء أغلق الباب الثقيل، وسمع الرجلان صرير القفل وهو يدير المفتاح في الباب.

نظر فالموث إلى ساعته.

وكان تعليقه المقتضب: «أربعون دقيقة.»

في الظلام جلس رجال العدالة الأربعة.

سُمع صوت مانفريد يقول: «لقد حان الوقت تقريبًا.» وجرجر تيري قدميه على الأرض إلى الأمام وأخذ يتلمس الأرض بحثًا عن شيء ما.

قال بتبرم بالإسبانية: «دعوني أشعل عود ثقاب.»

«لا.»

كان صوت بويكارت الحاد هو الذي أوقفه، وانحنى جونزاليس بسرعة ومرَّر أصابع حساسة على الأرض.

وجد سلكًا ووضعه في يد تيري، ثم مد يده ووجد الآخر، وببراعة ربطهما تيري معًا.

سأل تيري لاهثًا بسبب ما بذله من مجهود: «ألم يَحِن الوقت بعد؟»

«انتظر.»

كان مانفريد يفحص قرص ساعة يده المضيء. وفي صمت انتظروا.

قال مانفريد بجدية: «لقد حان الوقت.» ومد تيري يده.

وبعد أن مد يده أطلق أنة وانهار على الأرض.

سمع الثلاثة صوت الأنين، وشعروا بجسد الرجل المترنح وإن لم يروه، ثم سمعوا صوت ارتطامه بالأرض.

همس صوت في ثبات، وكان صوت جونزاليس: «ماذا حدث؟»

كان مانفريد بجوار تيري، يتحسس قميصه.

قال بصوت خفيض: «لقد أخطأ تيري، ولقيَ عاقبة ما فعل.»

«لكن رامون ...»

قال مانفريد، بينما كانت أصابعه لا تزال فوق قلب الرجل المنهار.

كانت تلك الأربعين دقيقة أطول أربعين دقيقة مرت على فالموث حسبما يذكر. حاول أن يُمضيها بطريقة سارَّة بأن أخذ يحكي قصص بعض من أشهر القضايا الجنائية التي

لعب فيها دورًا قياديًّا. لكنه وجد لسانه منشغلًا بما يشغل ذهنه. ازداد كلامه تفكُّكًا، وصار شبه هستيري. تناقل رجال الشرطة فيما بينهم أنه غير مسموح التحدث بنبرة أعلى من الهمس، وساد صمت مطلق، عدا صوت تمتمة بين حين وآخر عند طرح أو إجابة سؤال ضروري.

اتَّخذ رجال الشرطة أماكنهم في كل غرفة، وعلى السطح، وفي القبو، وفي كل ممر، وكان كل رجل منهم مسلحًا. جال فالموث بنظره فيما حوله. وجلس في غرفة مكتب السكرتير؛ إذ كان قد رتب لهاملتون أن يكون في البرلمان. فُتِحَت كل الأبواب على مصاريعها، وثُبِّتت بحيث لا تغيب أي مجموعة من رجال الشرطة عن أنظار الأخرى.

همس للمرة العشرين لرئيسه قائلًا: «لا أستطيع أن أفكر فيما يمكن أن يحدث. من المستحيل على هؤلاء الرجال أن يفوا بوعدهم. من المستحيل قطعًا.»

أجاب مفوض الشرطة: «من وجهة نظري السؤال المهم هو «هل سيفون بوعدهم الآخر؟ وهو أنهم إذا وجدوا أنهم فشلوا فسيتخلون عن محاولة تنفيذ تهديدهم».» وتابع قائلًا: «ثمة أمر واحد مؤكد، إذا خرج رامون من هذا حيًّا، فإن مشروع قانونه العفن سيُمرَّر دون معارضة.»

نظر إلى ساعته. وتحرِّيًا للدقة، فقد كان ممسكًا بساعته في يده منذ دخل السير فيليب غرفة.

تنهد بتوتر وقال: «باقٍ من الزمن خمس دقائق.»

سار بخفة إلى باب غرفة السير فيليب وأنصت.

قال: «لا يمكنني أن أسمع أي شيء.»

مرت الدقائق الخمس التالية أبطأ من أي دقائق سابقة.

قال فالموث بصوت متوتر: «الساعة الثامنة بالضبط. لقد ...»

دق جرس ساعة بيج بن البعيد، مرة.

همس: «الساعة الثامنة!» وأنصت الرجلان.

تمتم فالموث؛ إذ أخذ يعد الدقات: «اثنان.»

«ثلاثة.»

«أربعة.»

تمتم بسرعة: «خمسة. ما هذا؟»

«لم أسمع شيئًا. أجل، لقد سمعت شيئًا ما.» هب إلى الباب وأحنى رأسه إلى مستوى ثقب المفتاح. «ما هذا؟ ما ...»

ثم أتى من الغرفة صوت صرخة ألمٍ سريعة حادَّة، وصوت ارتطام. ثم عمَّ الصمت.

صاح فالموث: «بسرعة. تعالوا، يا رجال!» وألقى بثقل جسمه على الباب.

لم يتحرَّك الباب قيد أنملة.

«هلمُّوا معي جميعًا!»

ألقى ثلاثة رجال شرطة أقوياء البِنية بأجسادهم على الباب، وكُسر الباب وفُتِح.

هرع فالموث ومفوض الشرطة إلى داخل الغرفة ركضًا.

صاح فالموث في رعب: «يا إلهي!»

كان النصف العلوي من جسد وزير الخارجية ممدَّدًا على مكتبه الذي كان جالسًا عليه.

وكانت الأدوات المكتبية التي كانت مُتناثرة على مكتبه ملقاة على الأرض كأنما كان ثمة صراع.

تقدم مفوض الشرطة نحو الرجل الصريع ورفعه. كانت نظرة واحدة إلى وجهه كافية.

همس بصوت مبحوح: «لقد مات!» نظر حوله. كانت الغرفة خالية إلا من رجال الشرطة والقتيل.

الفصل الحادي عشر

قصاصة صحيفة

كانت قاعة المحكمة مُزدحِمة مجددًا اليوم في ترقب لشهادة مساعد مفوض الشرطة والسير فرانسيس كاتلينج، الجراح الشهير. قبل أن تُعاود الجلسات البدء، أشار محقِّق الوَفَيات إلى أنه كان قد تلقَّى عددًا هائلًا من الخطابات من صنوفٍ شتَّى من الناس تحوي نظريات، بعضها عجيب للغاية، عن سبب وفاة السير فيليب رامون.

قال محقِّق الوفيات: «يُخبرني رجال الشرطة أنهم توَّاقون لتلقي اقتراحات، وسوف يُرحبون بأي وجهة نظر مهما كانت غريبة.»

كان مساعد مفوض الشرطة أول شاهد نُودي عليه، وأدلى بالتفصيل بقصة الأحداث التي قادت إلى العثور على الوزير الراحل قتيلًا. ثم مضى يصف الحالة التي كانت عليها الغرفة. ملأت خزانات كتبٍ ثقيلة جانبَي الغرفة، وكان في الجانب الثالث أو الجانب الجنوبي الغربي ثلاث نوافذ، وكانت تحتلُّ الجانب الرابع خزانة تحتوي على خرائط وُضِعَت ملفوفة.

«هل كانت النافذة مُغلَقة بإحكام؟» «نعم.»

«وهل كانت محمية بشكلٍ كافٍ؟» «نعم؛ بدرفات قابلة للطي مُغطَّاة بحديد صلب.»

«هل كان ثمة أي أثر يدل على أن أحدًا حاول فتحها عنوة؟» «لا، على الإطلاق.»

«هل أجريتم تفتيشًا للغرفة؟» «نعم؛ أجرينا تفتيشًا دقيقًا.»

سأل رئيس هيئة المحلفين: «على الفور؟» «نعم؛ بعد أن نُقِلَت الجثة منها، أخرجنا منها كل ما كان فيها من أثاث، ورُفِعَت السجاجيد، وجُرِّدَت الحوائط والأسقف.»

«ولم تعثروا على أي شيء؟» «لا شيء.»

«هل توجد مدفأة في الغرفة؟» «نعم.»

«ألا يوجد أي احتمال أن يكون أي شخص قد دخل الغرفة عن طريقها؟» «إطلاقًا.»

«هل طالعت الصحف؟» «أجل، بعضًا منها.»

«هل طالعت الاقتراحات المقدمة التي مفادها أن الراحل قُتِل بإدخال غاز مميت؟» «نعم.»

«هل كان ذلك ممكنًا؟» «لا أظن ذلك.»

سأل رئيس هيئة المحلفين: «هل وجدت أي وسيلة يمكن بها إدخال غاز؟» (تردَّد الشاهد) «لا، لم أجد. عدا ماسورة غاز غير مستعملة كان لها فتحة فوق المكتب.» (همهمة في القاعة.)

«هل كان ثمة ما يدل على وجود مثل هذا الغاز.» «بالقطع لا.»

«ألم تُوجَد رائحة؟» «لا، لم توجد أي روائح.»

«ولكن توجد غازات مميتة ليس لها رائحة؛ ثاني أكسيد الكربون، على سبيل المثال؟» «نعم؛ توجد.»

سأل رئيس هيئة المحلفين: «هل اختبرتم هواء الغرفة للتحقق من وجود مثل هذا الغاز؟» «لا؛ ولكنني دخلت الغرفة قبل أن يكون ثمة وقتٌ لكي يتبدَّد وكان لا بدَّ أن ألاحظه لو كان موجودًا.»

«هل كانت الغرفة في حالة من الفوضى؟» «عدا الأدوات المكتبية على طاولة المكتب لم يكن ثمة فوضى.»

«هل وجدتم محتويات طاولة المكتب مُبعثَرة؟» «نعم.»

«أيمكنك أن تصف بالضبط مظهر طاولة المكتب؟» «لم يبقَ إلا غرض أو اثنان من الأغراض الثقيلة، مثل حامل الشموع الفضي ... إلخ، في موضعه. على الأرض كان يوجد عدد من الأوراق، ومحبرة، وقلم، و(وهنا أخرج الشاهد مُفكِّرةً من جيبه وأخرج منها شيئًا صغيرًا أسود منكمشًا) آنية زهر محطمة وعددًا من الورود.»

«هل وجدت أي شيء في يد القتيل؟» «أجل، وجدت هذه؟»

أمسك المحقق ببرعم وردة ذابل، وسرت همهمة فزع في القاعة.

«أهذه وردة؟» «نعم.»

راجع محقق الوفيات تقرير مفوض الشرطة المكتوب.

«هل لاحظت أي شيء غريب بشأن يده؟» «نعم، في الموضع الذي كانت فيه الزهرة كانت توجد بقعة سوداء دائرية.» (همهمة في القاعة.)

«هل يمكنك أن تفسر ذلك؟» «لا.»

سأل رئيس هيئة المحلفين: «ما الخطوات التي اتبعتها عندما اكتشفت هذا؟» «جمعت الورود بعناية واستخدمت ورقًا نشافًا لامتصاص أكبر قدر ممكن من الماء؛ وأُرسِلَت هذه الأشياء إلى وزارة الداخلية لتحليلها.»

«هل تعرف نتيجة ذلك التحليل؟» «على قدر علمي، لم يكشف التحليل عن أي شيء.»

«هل اشتمل التحليل على أوراق من الوردة التي بحوزتك؟» «نعم.»

بعد ذلك مضى مساعد مفوض الشرطة في إعطاء تفاصيل عن ترتيبات الشرطة لليوم الموعود. صرح على نحو قاطع أنه كان من المستحيل على أي شخص أن يدخل أو يخرج من مقر وزارة الخارجية دون أو يُرْصَد. بعد واقعةِ القَتل على الفور تلقى رجال الشرطة الذين كانوا في الخدمة أوامر بأن يَثْبُتوا في أماكنهم. وقال الشاهد إن معظم الرجال كانوا في الخدمة منذ ستة وعشرين ساعة مُتواصِلة.

عند هذه المرحلة كُشِف عن المَلمَح الأكثر إثارة في التحقيق. حدث ذلك بطريقة مفاجئة ودرامية، وكان نتيجة لسؤال وجهه محقِّق الوَفَيات، الذي أشار باستمرار إلى الإفادة الموقَّعة التي أدلى بها مفوض الشرطة والتي كانت أمامه.

«هل تعرف رجلًا يُدعى تيري؟» «نعم.»

«هل كان أحد أفراد العصابة التي تُسمِّي نفسها «رجال العدالة الأربعة»؟» «أعتقد ذلك.»

«هل عُرِضَت مكافأة للقبض عليه؟» «نعم.»

«هل كان مُشتبَهًا في ضلوعه في مخطط قتل السير فيليب رامون؟» «نعم.»

«هل عُثِر عليه؟» «نعم.»

أثار هذا الردُّ المختصَر صيحة مفاجأة عفوية من الحاضرين في المحكمة المزدحمة.

«متى عُثِر عليه؟» «هذا الصباح.»

«أين؟» «في مُستنقَعات رومني.»

«هل كان ميتًا؟» «نعم.» (همهمة في القاعة.)

«هل كان يوجد أي شيء غريب بشأن جثته؟» (حبس الحاضرون في القاعة كلهم أنفاسهم في انتظار الإجابة.) «نعم؛ في راحة يده اليمنى كانت توجد بقعة شبيهة بتلك التي عُثِر عليها في يد السير فيليب رامون!»

سرت قشعريرة في حشد المستمعين بالقاعة.

«هل عُثِر على وردة في يده أيضًا؟» «لا.»

سأل رئيس هيئة المحلفين: «هل كان يوجد أي شيء يدلُّ على الطريقة التي جُلِب بها تيري إلى الموضع الذي عُثِر عليه فيه؟» «لا شيء.»

أضاف الشاهد أنه لم يُعْثَر على أي أوراق أو وثائق من أي نوع مع القتيل.

كان الشاهد التالي هو السير فرانسيس كاتلينج.

بعد أن حلف اليمين مُنِح الإذن بأن يُدلي بشهادته من فوق طاولة المحامين، التي كان قد بسط عليها أوراق ملاحظاته الكثيرة. أمضى نصف ساعة في قراءة تقرير فني متخصِّص عن أبحاثه. كانت توجد ثلاثة أسباب محتملة للوفاة. إما أنها كانت وفاة طبيعية؛ فضعفُ قلب الرجل كان كافيًا ليُسبب الوفاة؛ أو أنها حدثت نتيجة اختناق؛ أو أن تكون نتيجة ضربة، بطريقة استثنائية ما، لم تترك أي كدمة.

«هل كانت ثمَّة أي آثار لسُم؟» «لا.»

«هل سمعت الشهادة التي أدلى بها الشاهد الأخير؟» «نعم.»

«وهل سمعت هذا القسم من الشهادة المتعلِّق ببقعة سوداء؟» «نعم.»

«هل فحصت تلك البقعة؟» «نعم.»

«هل كوَّنت أي رأي نظري فيما يتعلق بها؟» «نعم؛ تبدو لي وكأنها تشكَّلت نتيجة حمض.»

«حمض الكربوليك، مثلًا؟» «نعم؛ ولكن لم يكن يوجد ما يدلُّ على أي حمض من الأحماض المعروفة تجاريًّا.»

«هل رأيت يد المدعو تيري؟» «نعم.»

«هل كانت البقعة ذات طابع مشابه؟» «نعم، ولكنها أكبر وأكثر تعرجًا.»

«هل كانت توجد أي آثار لحمض؟» «لا.»

سأله رئيس هيئة المحلفين: «لقد طالعت الكثير من النظريات الغريبة التي نشرتها الصحف واقترحها الجمهور، أليس كذلك؟» «أجل؛ وأوليتها اهتمامًا كبيرًا.»

«ولا ترى فيها أي شيء يمكن أن يقودك إلى الاعتقاد بأن المتوفى قد لقى حتفه بالطريقة المشار إليها؟» «لا.»

«ماذا عن نظرية الغاز القاتل؟» «مستحيلة؛ كان لا بد أن يُرْصَد على الفور.»

«ماذا عن نظرية إدخال غاز غير ملحوظ إلى الحجرة يمكن أن يؤدي إلى الاختناق ولا يترك أثرًا؟» «هذا النوع من السموم غير معروف في أوساط العلوم الطبية.»

«هل رأيت الوردة التي عُثِر عليها في يد السير فيليب؟» «أجل.»

«ما تفسيرك لها؟» «لا أستطيع أن أجد تفسيرًا لها.»

«ولا فيما يتعلَّق بالبقعة؟» «ولا فيما يتعلَّق بالبقعة.»

سأله رئيس هيئة المحلفين: «هل كوَّنت أي رأي قاطع بشأن سبب الوفاة؟» «لا؛ أكتفي بالتسليم بأحد الاقتراحات الثلاثة التي قدمتها.»

«هل تؤمن بالتنويم المغناطيسي؟» «نعم، إلى حدٍّ ما.»

«وهل تؤمن بالتنويم الإيحائي؟» «إلى حدٍّ ما أيضًا.»

«هل من المحتمَل أن يكون الإيحاء بوجود تهديد مستمر بالموت في ساعة معينة قد أدى إلى الموت؟» «لا أفهم السؤال جيدًا.»

«هل من المُحتمَل أن يكون المتوفى ضحية الإيحاء التنويمي؟» «لا أعتقد أن هذا محتمل.»

سأله رئيس هيئة المحلفين: «تتكلَّم عن ضربة لا تترك كدمة. من واقع خبرتك، هل رأيت حالة كتلك؟» «نعم؛ مرتين.»

«ولكن هل كانت ضربةً كافية لتتسبَّب في الوفاة؟» «نعم.»

«دون أن تترك أيَّ كدمة أو علامة من أي نوع؟» «نعم؛ رأيت حالة في اليابان حيث أدَّى ضغط غريب على الحلق إلى وفاة رجل على الفور.»

«هل تلك حالة عادية؟» «لا؛ إنها حالة شاذَّة جدًّا بما يكفي لأن تثير ضجة كبيرة في الأوساط الطبية. لقد سُجِّلَت الحالة في «المجلة الطبية البريطانية» في عام ١٨٩٦.»

«ولم تترك أيَّ أثر لكدمة أو رضة؟» «لم تترك أيَّ أثر على الإطلاق.»

بعد ذلك قرأ الجرَّاح الشهير مُقتطفًا طويلًا من «المجلة الطبية البريطانية» يثبت صحة هذا القول.

«هل يُمكنك القول إنَّ المُتوفَّ قد مات بهذه الطريقة؟» «هذا أمر مُحتمَل.»

سأله رئيس هيئة المحلَّفين: «هل تُعزِّز هذا الرأي باعتباره احتمالًا قويًّا؟» «نعم.»

بعد بضعة أسئلة أخرى ذات طابع فني متخصِّص انتهى الاستجواب.

أثناء مُغادَرة الجرَّاح العظيم لمقصورة الشهادة سرت في القاعة همهمات أحاديث، وشعور بخيبة أمل كبيرة من جميع الأطراف؛ فقد كان الجميع يأملون في أن تُوضِّح شهادة الخبير الطبي بعضًا من الأمور الخفية، لكنها تركت لغز وفاة السير فيليب رامون بلا تفسير كما كان دومًا.

كان الشاهد التالي الذي نُوديَ عليه هو المفتش فالموث.

كان جليًّا أن المفتش، الذي أدلى بشهادته بنبرات واضحة، يتحدث تحت ضغط معاناة نفسية شديدة. بدا أنه يُقدر بشدة فشل الشرطة في الحفاظ على حياة الوزير القتيل. كان معروفًا للجميع أنه بعد الفاجعة على الفور تقدَّم هو ومساعد مفوض الشرطة باستقالتهما، التي لم تُقبل بناءً على تعليمات صريحة من رئيس الوزراء.

كرَّر السيد فالموث قدرًا كبيرًا من الشهادة التي كان قد أدلى بها بالفعل مفوض الشرطة، ورَوى كيف كان يقف في الخدمة خارج باب حجرة وزير الخارجية في لحظة الفاجعة. أثناء ما كان يَروي تفصيلًا أحداث تلك الليلة عم القاعة صمت مهيب.

«تقول إنك سمعت ضجة آتية من داخل حجرة المكتب؟» «نعم.»

«ضجة من أي نوع؟» «حسنًا، من الصعب وصف ما سمعته؛ كان واحدًا من تلك الأصوات غير الواضحة التي بدَت مثل كرسي يُجَر على سطح ناعم.»

«هل يُمكن أن تكون ضجة صادرة عن انزلاق باب أو لوح خشبي؟» «نعم.» (همهمة في القاعة.)

«أتلك هي الضجة التي وصفتَها في تقريرك؟» «أجل.»

«هل اكتُشِف أيُّ لوح؟» «لا.»

«ولا أي باب منزلق؟» «لا.»

«أكان من الممكن لشخص أن يخفي نفسه في أيٍّ من المكاتب أو خزائن الكتب؟» «لا؛ فقد فُحِصَت.»

«ماذا حدث بعد ذلك؟» «سمعت صوت تكَّة وصرخة صادِرة من السير فيليب، وحاولت أن أكسر الباب.»

سأله رئيس هيئة المحلَّفين: «هل كان الباب موصدًا؟» «أجل.» «وهل كان السير فيليب بمُفردِه؟» «نعم؛ كان ذلك بناءً على رغبته، رغبة أبداها في وقت سابق في ذلك اليوم.»

«بعد الفاجعة، هل أجريت تفتيشًا منظمًا داخل وخارج مقر وزارة الخارجية؟» «نعم.»

«هل اكتشفتَ أي شيء؟» «لم أكتشف أيَّ شيء، عدا أمر واحد غريب، ولكن ليس له أي علاقة محتملة بالقضية الحالية.»

«ماذا كان ذلك الأمر؟» «في الواقع، كان وجود عُصفورين نافقين على عتبة نافذة الغرفة.»

«هل فُحصا؟» «نعم؛ ولكن الجراح الذي أجرى عليهما عملية التشريح قال إنها نفَقا جراء التعرض للبرد وسقطا من الحاجز في الطابق الذي يعلو النافذة.»

«هل كان يوجد أي أثر لسُمٍّ في هذين الطائرين؟» «لم يُعثَر على أي سُمٍّ يمكن اكتشافه.»

عند تلك النقطة استُدعي السير فرانسيس كاتلينج. كان قد رأى الطائرين. ولم يستطع أن يجد أيَّ أثر لسُم.

«بفرض احتمال وجود الغاز الذي تحدثنا عنه سابقًا، غاز قاتل له خاصية التبدد السريع، ألا يُمكن أن يؤدي تسرُّب كمية قليلة من هذا الغاز إلى نفوق هذين الطائرين؟» «نعم، إن كانا واقفين على عتبة النافذة.»

سأله رئيس هيئة المحلَّفين: «هل تربط بين هذين الطائرين وبين الفاجعة؟» رد الشاهد على نحو قاطع: «لا.»

تابع المفتش فالموث الإدلاء بشهادته.

«هل كانت ثمة أي مظاهر غريبة أخرى استرعت انتباهك؟» «لا.»

شرع محقق الوفيات في سؤال الشاهد بشأن العلاقات بين ماركس والشرطة.

«هل البقعة التي عُثِر عليها على يد السير فيليب، وعلى يد المدعو تيري، وُجِدَت أيضًا في جثة ماركس؟» «لا.»

وبينما كانت القاعة تنفض، ووقفت مجموعات قليلة من الرجال تَتناقش بشأن أغرب حكم على الإطلاق تصدره هيئة محلَّفي وَفيات؛ «وفاة بسبب غير معروف، وجريمة قتل عمد ارتكبها شخصٌ أو أشخاص مجهولون.» التقى محقِّق الوَفَيات عند مدخل المحكمة بوجه مألوف.

قال، وقد أخذته المفاجأة: «مرحبًا، يا كارسون! أنت أيضًا هنا؛ ظننتُ أن مُفلسيك يشغلونك، حتى في يوم كهذا؛ يا لها من قضية عجيبة!»

وافقه الآخر الرأي قائلًا: «عجيبة بالفعل.»

«هل كنتَ حاضرًا طوال الوقت؟»

أجاب كارسون: «نعم.»

«هل لاحظتَ رئيس هيئة المحلفين البارع؟»

«أجل؛ أظن أنه كان سيُصبح محاميًا أذكى من مجرد مؤسس شركات.»

«أتعرفه إذن؟»

تثاءب مأمور التفليسة، قائلًا: «أجل؛ الشيطان البائس، كان يظن أنه سيقيم لندن ويُقعدها، فأسس شركة لإنتاج الصور الزنكوغرافية وأشياء من هذا القبيل، واشترى مؤسسة إثيرنجتون منَّا، لكنها عادت إلينا مجددًا.»

تساءل محقِّق الوفيات مندهشًا: «هل فشل في إدارتها؟»

«لم يَفشل بالضبط. لقد أوقف عملها؛ يقول إن المُناخ لا يُناسبه؛ قل لي ما اسمه؟»

قال مُحقِّق الوفيات: «مانفريد.»

الفصل الثاني عشر

الخاتمة

جلس فالموث على الجهة المقابلة من مكتب كبير مفوضي الشرطة، ويداه مَعقودتان أمامه. على النشافة استقرَّت ورقة رسائل رمادية رفيعة. التقطها المفوض مجددًا وأعاد قراءتها. كان نصها:

عندما تتلقَّى هذه الرسالة، سنكون نحن الذين نُفضِّل أن نلقب أنفسنا باسم «رجال العدالة الأربعة» قد تفرقنا في أنحاء أوروبا، واحتمال أن تستطيعوا اقتفاء أثرنا ضعيف جدًّا. دون تفاخُر نقول: لقد أنجزنا ما وضعنا نصب أعيننا أن نُنجزه. وبلا نفاق نكرر أسفنا على أن الخطوة التي اتخذناها كانت ضرورية.

سيبدو مقتل السير فيليب رامون وكأنه كان حادثًا. ونحن نعترف بهذا. لقد أخطأ تيري خطأً شنيعًا؛ ولقيَ عقوبة خطئه. لقد اعتمدنا أكثر من اللازم على معرفته التقنية. لعلَّكم ببحث دءوب ستَحلُّون لغز مقتل السير فيليب رامون؛ وعندما يؤتي هذا البحث ثماره ستدركون صدق هذا القول. وداعًا.

قال المفوض: «إنها لا تُوضح شيئًا.» هز فالموث رأسه في قنوط. قال بمرارة: «بحث! لقد فتَّشنا مقرَّ وزارة الخارجية في داوننج ستريت وقلبناه رأسًا على عقب؛ أين يمكننا أن نبحث أيضًا؟»

«ألا تُوجَد أي ورقة ضمن أوراق ومستندات السير فيليب يمكن أن تدلكم على الطريق الصحيح؟»

«لم نجد أي ورقة مما رأينا يُمكن أن تفيد في ذلك.»

عض مفوض الشرطة طرف قلمه مفكرًا.

«هل فتشتم منزله الريفي؟»

قطَّب فالموث جبينه عابسًا.

«لم أتصوَّر أن ذلك كان ضروريًّا.»

«ولا بيته في بورتلاند بليس؟»

«لا؛ فقد أُغلِق قبيل مقتله.»

نهض مفوض الشرطة.

قال له ناصحًا: «حاول أن تبحث في منزل بورتلاند بليس. إنه حاليًّا في حوزة منفذي وصية السير فيليب.»

أوقف المفتِّش عربة أجرة تجرها الخيول، وفي خلال ربع ساعة كان يدق الأبواب الكئيبة لمنزل وزير الخارجية الراحل في المدينة. فتح الباب خادم متجهِّم؛ كان رئيس خدم السير فيليب، وكان فالموث يعرفه، وحيَّاه بإيماءة من رأسه.

قال فالموث: «أريد أن أُجري تفتيشًا للمنزل، يا بيركس. هل لمس أحدٌ أي شيء؟»

هز الرجل رأسه نفيًا.

أجاب: «لا، يا سيد فالموث، كل شيء كما تركه السير فيليب بالضبط. بل إن السادة المحامين لم يُجرُوا جردًا للموجودات بعد.»

سار فالموث عبر الردهة الباردة إلى الغرفة الصغيرة المريحة التي خُصِّصَت لرئيس الخدم.

قال: «أود أن أبدأ بغرفة المكتب.»

قال بيركس باحترام: «أخشى أنه ستكون ثمة صعوبة في تنفيذ ذلك، يا سيدي.»

تساءل فالموث بحدة: «لماذا؟»

«إنها الغرفة الوحيدة في المنزل التي ليس لها مفتاح. كان السير فيليب يملك مفتاحًا خاصًّا لغرفة مكتبه وكان يحمل هذا المفتاح معه. كما ترى، كونه أحد وزراء الحكومة، ورجلًا في غاية الحرص، كان دقيقًا جدًّا بشأن الأشخاص الذين يدخلون غرفة مكتبه.»

فكر فالموث قليلًا.

كان عدد من مفاتيح السير فالموث الخاصة مودعًا في سكوتلاند يارد.

كتب رسالة قصيرة إلى رئيسه وأرسلها مع أحد الخدم في عربة أجرة إلى سكوتلاند يارد.

بينما كان يَنتظِر استدعى رئيس الخدم.

سأله: «أين كنت وقت ارتكاب الجريمة، يا بيركس؟»

«في الضيعة؛ فقد بعث السير فيليب جميع الخدم إلى هناك، أظنُّك ستذكر ذلك.»

«وماذا عن المنزل؟»

«كان خاليًا. خاليًا تمامًا.»

«عند عودتك هل وجدت أي شيء يدل على أن أحدًا حاول دخول المنزل؟»

«لا، يا سيدي؛ من رابع المستحيلات السطو على هذا المنزل. توجد أسلاك إنذار مثبتة ومتصلة بقسم الشرطة، والنوافذ تُغلَق آليًّا.»

«لم تجد أي علامات على الأبواب أو النوافذ يمكن أن تقودك إلى الاعتقاد بأن أحدًا حاول دخول المنزل؟»

هز رئيس الخدم رأسه بحزم.

«لا، لم أجد أي شيء؛ في أثناء عملي اليومي أُجري فحصًا دقيقًا جدًّا للطلاء، ولا بد أنني كنت سألاحظ أي علامات من هذا القبيل.»

بعد نصف ساعة عاد الخادم، وبرفقته أحد المحققين، وأخذ فالموث من الشرطي ذي الملابس المدنية مجموعة من المفاتيح.

أرشدهم رئيس الخدم إلى الطابق الأول.

أشار إلى باب غرفة المكتب، وكان بابًا ضخمًا من خشب السنديان، وله قفل صغير جدًّا.

بحرص شديد تخيَّر فالموث المفاتيح. وحاول مرتين دون نجاح، ولكن في المحاولة الثالثة فُتِح القفل محدثًا صوت تكة، وانفتح الباب دون ضوضاء.

وقف لحظة عند المدخل؛ لأن الغرفة كانت مظلمة.

قال بيركس: «لقد نسيت، إن الدرفات مُغلَقة؛ هل أفتحها؟»

قال المفتش: «من فضلك.»

في غضون بضع دقائق كان النور يغمر الغرفة.

كانت غرفة مؤثثة بأثاث بسيط، تُشبه في مظهرها الغرفة التي لقيَ فيها وزير الخارجية حتفه. كانت تفوح منها رائحة مُتعفِّنة لجلد قديم، وكانت جدران الغرفة مُغطَّاة بأرفف الكتب. وفي المنتصَف استقر مكتب ضخم من خشب الماهوجني، وعليه حزم من الأوراق المرتَّبة بعناية.

ألقى فالموث نظرة سريعة ومدقَّقة على هذا المكتب. كان مكسوًّا بتراب كثيف متراكم. وعلى جانب منه، على مقربة من كرسي فارغ، كانت تُوجَد طاولة هاتف عادية.

قال فالموث: «لا توجد أجراس.»

أجاب رئيس الخدم: «لا يا سيدي، فالسير فيليب لم يكن يحبُّ صوت الطنين.»

تذكر فالموث ذلك.

قال بسرعة: «بالطبع، أتذكر. ما هذا؟!»

انحنى للأمام بتلهُّف.

«عجبًا، ما الذي حدث للهاتف؟»

كان من حقه أن يسأل؛ فقد كان حديده ملويًّا ومعوجًا. وبالأسفل، حيث كان المسماع، كانت توجد كومة من رماد أسود، ولم يبقَ من السلك المرن الذي كان يصله بالعالم الخارجي إلا قطعة مَبرومة من سلك عديم اللون.

أما الطاولة، التي كان الهاتف موضوعًا عليها، فكانت محترقة فيما يبدو بفعل حرارة شديدة.

التقط المفتِّش نفسًا طويلًا.

واستدار إلى معاونه.

«اذهب بسرعة إلى محل الكهربائي ميلر في شارع ريجينت، واطلب منه أن يأتي على الفور.»

كان لا يزال واقفًا يحدق في ذهول في الهاتف عندما وصل الكهربائي.

قال فالموث ببطء: «سيد ميلر، ماذا حدث لهذا الهاتف؟»

ضبط الكهربائي نظارته الأنفية وتفحَّص الدمار الذي حدث للهاتف.

قال: «يبدو إلى حدٍّ كبير كما لو أن عامل توصيلات هاتفية قد ارتكب جريمة من جرائم الإهمال.»

تساءل فالموث: «عامل توصيلات هاتفية؟ ماذا تعني؟»

«أعني العامل الذي يُصلح أسلاك الهاتف.» ثم كرَّر عملية الفحص.

«ألا ترى؟»

أشار إلى العدة الخربة.

«أرى أن عدة الهاتف مُدَمَّرةٌ تمامًا؛ ولكن لماذا؟»

انحنى الكهربائي والتقط السلك المُحترِق من فوق الأرض.

قال: «ما أعنيه هو هذا. لقد وَصَّل شخص ما سلكًا ينقل فولطية كهربائية عالية، ربما سلك إضاءة كهربية، بخط الهاتف هذا؛ وإذا تصادف وكان أي أحد على ...» توقَّف فجأة عن الكلام، وشحب وجهه.

همس قائلًا: «يا إلهي الرحيم! لقد مات السير فيليب رامون صعقًا بالتيار الكهربي!»

لبعض الوقت خيم الصمت على الحاضرين. ثم اندفعت يد فالموث إلى جيبه وأخرج المفكرة الصغيرة التي كان بيلي ماركس قد سرَقَها.

صاح: «ذلك هو الحل؛ ها هو الاتجاه الذي سلكتْه الأسلاك، ولكن كيف لم يُدَمَّر الهاتف الذي في داوننج ستريت على نحو مماثل؟»

هز الكهربائي رأسه في نفاد صبر وهو لا يزال شاحب الوجه.

قال: «لقد يَئستُ من محاولة تفسير تقلبات الكهرباء؛ أضف إلى ذلك، ربما يكون التيار، القوة الكاملة للتيار، قد انعكس. ربما تكون دائرة كهربية قصيرة قد تأثرت. أي شيء ربما يكون قد حدث.»

قال فالموث: «مهلًا! افترض أن الرجل الذي كان يُجري التوصيل قد أخطأ خطأ شنيعًا. أصابته القوة الكاملة للتيار. هل كان ذلك سيؤدي إلى هذه النتيجة؟»

«ربما يؤدِّي إلى ...»

قال فالموث ببطء، مقتبسًا العبارة التي وردت في رسالة الأربعة: «لقد أخطأ تيري خطأً شنيعًا؛ ولقيَ عقوبة خطئه.» واستطرد قائلًا: «لقد أصيب رامون بصدمة خفيفة، كافية لأن تُخيفَه. كان يعاني من ضعف في القلب. الحرق الذي في يده، والعصفوران النافقان! بحق السماء! إن الأمر واضح وضوح الشمس!»

لاحقًا، داهمت قوة كبيرة من الشرطة المبنى الكائن في شارع كارنابي، لكنها لم تجد شيئًا، عدا بقايا سيجارة تحمل اسم تاجر تبغ لندني، وكعب تذكرة باخرة مبحرة إلى نيويورك.

كان مكتوبًا عليها «بواسطة آر إم إس «لوكانيا».» وكانت لثلاثة ركاب في الدرجة الأولى.

عندما وصلت الباخرة «لوكانيا» إلى نيويورك، فتَّشها رجال الشرطة من أولها إلى آخرها، لكنَّهم لم يَعثُروا على رجال العدالة الأربعة.

كان جونزاليس هو من ترك «الدليل» عمدًا من أجل أن تجده الشرطة.

هنداوي